

مسؤول
مركز دراسة جهاز الليبيين ضد الفز والاريطالى
سلسلة الكتب المترجمة - 18



إِطَالِيَا

في الاُصْدَاتِ الْبَحْرِيَّةِ الطَّرَابُلسِيَّةِ

تأليف
كامالو منقروني

ترجمة الأستاذ
عمر محمد الباروني
مراجعة الدكتور
صلاح الدين السّوري

الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

1988

منشورات

مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي

سلسلة الكتب المترجمة - 18



إِيطَالِيَا

فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْحُرِّيَةِ وَالْإِسْلَامِ

تأليف

كاميلو منغروني

ترجمة الأستاذ

عمر محمد الباروني

مراجعة الدكتور

صلاح الدين السّوري

الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

١٩٨٨ م

تقديم

يقدم هذا الكتاب مسحاً سريعاً وشاملاً للعلاقات البحرية بين طرابلس والدويلات الإيطالية منذ أقدم عصورها وحتى انتهاء العهد القرمانلي ، وأعد ، كما يبدو ، في إطار الدراسات العامة التي صدرت عن « معهد الدراسات الفاشيستي لأفريقيا الإيطالية » أو بتشجيع منه ، والتي قام بها نخبة من الدارسين الإيطاليين في مجالات تاريخية متعددة ، التزم بعضهم الموضوعية من أجل الوصول إلى جملة من الحقائق العلمية .

فالكتاب لا يخلو من فائدة ، إذ من خلال استعراضه السريع للأحداث استطاع أن يقدم بعض المعلومات المفيدة وأن يلقي الضوء على بعض المشكلات والقضايا الهامة التي ربما تستثير الباحثين من شباب هذا البلد للقيام بدراسات أكثر عمقاً وأعظم فائدة .

فالمؤلف وهو يتناول تلك الفترة الطويلة بجوانبها المتعددة في هذا الكتيب الصغير قد اكتفى بالنظرة الشمولية العامة كما اكتفى في سياق كتابته بالإشارة العابرة إلى بعض المراجع التي استند عليها ، وربما تقيد في ذلك بالغرض الذي من أجله أعد هذا الكتاب وما على شاكلته ، ومن ثم فهو لم يقدم البحث العلمي المتعارف عليه ، والمحدد في مداه الزماني والمكاني والموضوعي ، كما لم يتقيد بالأصول الشكلية التي تقتضيها المنهجية التاريخية في التقديم والعرض والاختتام ، وفي التهميش والتوثيق والفهرسة .

ومجمل القول أن أهمية الكتاب ما زالت قائمة في معلوماته التي قدمها ، وفي قضاياها التي طرحها ، وفي مشكلاته التي أثارها ، وهو ما دفع مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي إلى تقديمه إلى القراء باللغة العربية ، وأسند هذه المهمة إلى أستاذ قدير هو الأستاذ عمر محمد الباروني فقام بها خير قيام ، فقد استطاع بفضل تمكنه من اللغتين العربية

والإيطالية ، وثقافته الواسعة ، وحسه التاريخي وتجاربه السابقة ، أن يقدم هذه الترجمة العلمية الأمانة بلغة فصيحة وأسلوب جميل ، ولم يكتف بمجرد التعريب بل نظر إلى الكتاب نظرة الدارس المتفحص الذي طالما توقف ليستشير مرجعاً أو آخر من أجل استجلاء حقيقة ، أو تصويب خطأ ، أو تقديم شرح - كما سيري القارئ بنفسه في هوامش هذا الكتاب .

أخيراً أرجو أن يكون في هذا الجهد فائدة للطلبة والباحثين والدارسين والقراء بوجه عام كما أرجو الله أن يوفقنا في أداء رسالتنا على الوجه الذي يحبه ويرضاه .

د / صلاح الدين حسن السورى

عضو هيئة التدريس بكلية التربية

جامعة الفاتح

ملاحظات عن الكتاب في لغته الأصلية :

L'ITALIA NELLE VICENDE

MARINARE DELLA TRIPOLITANIA

CAMILLO MANFRONI

A. AIROLDI EDITORE — VERBANA

MCMXLIIXX

ملاحظات

في هذا الكتاب جاء ذكر فرقاطة ، غراب ، شباك ، شينى

— الفرقاطة : Fregate تحتوى عادة على ٦٠ مدفعاً من عيار ٢٤ وعدد بحارتها ٧٠٠ بحار .

— الغراب : Corvette استعمل العرب هذا النوع من السفن وذكر كثيراً في الأشعار ويسير بالقلاع والمجاديف ولا يتجاوز ١٨٠ مجدافاً ومن خصائصه ان يزود بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند إلى سفينة العدو .

— شباك : Sciabecco مركب حربي صغير الحجم .

— شينى : Galere هو المركب في البحر ومتوسط ما يحمله الشينى الواحد ١٥٠ رجلاً ويجدف بمائة مجداف ، وظلت الشواني تستعمل في الملاحة حتى آخر العهد القرمانلى .

المعرب



1

العلاقات البحرية بين إيطاليا ومنطقة طرابلس يلفّها الغموض وتكتنفها الشكوك في الماضي البعيد ، ولكن هذه العلاقات كانت دون ريب مألوفة بالنظر إلى القرب والهدوء النسبي للبحر الذي يفصل بين البلدين . وكما لوحظ في مرات عديدة ، فأنا إذا كنا نعرف ، في شيء من التوسع ، تاريخ برقة والأحداث الرئيسية التي خضعت لها في الماضي فإن المعلومات التي وصلت إلينا عن الأراضي الواقعة إلى الغرب من ساحة اخوة فيليني قليلة ومتقطعة وجاءت في شكل اشارات غير أكيدة .

وبما يمكن للمصادر النادرة أن تتيح لنا من الحدس ، فإن بعض النقاط على طول السواحل الطرابلسية وحتى الأراضي الواقعة إلى الشرق التونسي أي المنطقة الواقعة بين السرتين قد أقيمت عليها مستعمرات بونيقية ومن هنا سماها الرومان المحطات البونيقية ، ولكن كم كان عددها على وجه التحديد ؟ وماذا ألمّ بها من أحداث ؟ فذلك ما نجعله ، والرأي السائد الآن أنه عندما برزت قرطاجة كدولة كبيرة فإن تلك المستعمرات إذا لم تخضع للحكم القرطاجي المباشر فإنها خضعت للجزية ومحطة لبش أو لبس (لبدة) هي أكبر هذه المستعمرات وأهمها ، وقد قيل أن مرساها ردمه القرطاجيون لمنافسته التجارية لهم ، ومن هنا جاء الاعتقاد بأنه قبل هذا العمل القاسي كان الإبحار يجري من لبدة إلى السواحل الصقلية - وهي غير بعيدة عنها - من جهة ، ومن جهة أخرى إلى بلاد اليونان . [←] ومن الراجح أيضاً أن لبدة كانت منذ عصور قديمة جداً مركزاً للقوافل المحملة بالبضائع النفيسة من أفريقيا الاستوائية عبر الصحراء ، ويظهر أن أوية (طرابلس اليوم) وصبراته كان لهما ازدهار بحري لا يستهان به لكنه يقل بكل تأكيد عن الازدهار الذي تمتعت به لبدة .

كانت المدن الثلاث وغيرها من المدن الصغيرة ، في فترة خضوعها لقرطاجة كانت تزود على الأرجح الحكومة المسيطرة مكروهة بالمال والرجال ، وربما بالمرائب كذلك ،

ولا يستبعد أن رجالا من طرابلس قد شاركوا في المعارك التي خاضتها قرطاجة في صقلية وفي الحروب البونية ، وفي المعارك البحرية العديدة التي قامت بين روما وقرطاجة بالرغم من صمت التاريخ ، وقد جرب سكان سواحل هذه المنطقة التي سميت فيما بعد بطرابلس بالاضافة إلى بعض القبائل الليبية الخاضعة لقرطاج قوتهم ومقدرتهم ضد أجدادنا القدامى .

وبعد الحرب البونية الثانية اقتطعت منطقة المحطات التجارية (الامبوريا) لماسينيا ، ملك نوميديا ، وبقيت في أملاكه وأملاك خلفائه من بعده ، فهل كان الاقتطاع اسمياً وبعيداً عن الواقع ، كما يعتقد الكثيرون ، أو أنه خضوع فعلي أو بجزية مفروضة على أقل تقدير ، فذلك مالا نعلمه وبالتأكيد فإنه خلال حرب جوقرته ، كما ذكر سالو ستيوس ، انفصلت إحدى مدن الامبوريا ورفضت الخضوع للملكة النوميدية وانضمت بكل تأكيد إلى صف روما ، وقدمت إلى القناصل والولاة الرومان مساعدات من كل نوع ضد الحكام السابقين .

وعندما انتهت الحرب منحت لقب متآلفة (FEDERATA) مكافأة لها من روما وربما حصلت كذلك على حماية ومساعدة ضد قبائل الدواخل الذين زاد خطرهم وتهديدهم والذين ظلت علاقاتهم مع مدن السواحل مجهولة لدينا . إلا ان هناك فقرة أوردها المؤرخ الروماني تاسيتوس نلقى شيئاً من النور على العلاقات المذكورة ، فقد ذكر في تاريخه أن مدينة أوية طرابلس وكانت في حرب مع منافستها لبدة ، استنجدت بالقرمانت وهي من أشد القبائل ولعاً بالقتال في منطقة فزان ، ولبت هذه القبيلة الدعوة واحتلت وخربت لبدة ، وطردها بعد ذلك بواسطة الكتائب الرومانية المستنفرة ، كان ذلك في عهد الامبراطور فيسبا سيان . لقد انتهت تبعية طرابلس لمملكة نوميديا قبل قرن تقريباً من هذه الأحداث وأصبحت جزءاً من المقاطعة الرومانية الأفريقية وخضعت لتدخل روما المباشر في الحكم والدفاع عن المنطقة ونمت العلاقات التجارية معها وربما ازدهرت الملاحة مع هجرة مواطنين من الرومان وخاصة من جنوب إيطاليا ومن صقلية إلى المدن الساحلية ، وقد أفاد في سلامة المنطقة من غارات القبائل الليبية المتكررة وضمنان تبادل السلع تركز فيلق أوغوستا الثالث في مواقع ثابتة في كثير من الواحات وعلى طول طريق القوافل إلى فزان .

ولا ريب أن أكثر أيام لبدة ازدهاراً كانت في عهد الانطونيين ، فقد ازدادت العلاقات البحرية مع ايطاليا سهولة وتواجداً وتردداً ونشاطاً .

وغدت لبدة مستعمرة باسم أولبيا ترايانا ومركزاً للازدهار والحياة ، وتلقى الحفريات الأخيرة التي أجراها رومانيلي وبرتوتشيني ، والتي أشير إليها في مجموعة الدراسات الاستعمارية والصادرة بعنوان (أفريقيا الإيطالية) ، الضوء على اتساع وتurf الحمامات التي تليق بمدينة عظيمة ، وهناك ما يثبت أن ذلك لا يرجع إلى نزوة من نزوات مواطن منها صعد إلى قمة العرش الامبراطوري بل لوجود « مركز حياة مدنية يتفد نشاطاً قبل زمن هذا الامبراطور بأكثر من قرن واحد ، وإلى هذه الثروة والترف تعود عظمة تلك الأبنية ، ويستنتج منطقياً أن لبدة كانت بكل تأكيد مدينة زاهرة جداً وأن مرساها كان يزخر بالسفن وأن العلاقات البحرية مع السواحل الإيطالية كانت عديدة وهامة ، وبالمثل فان الحفريات والمخلفات في أوية وصبرانة ، رقم أن أهميتها تقل عن مثيلاتها بلبدة ، فأنها تشهد بأنهما تمتعا بثروة وحيوية كانت كبيرة حقاً وينجلي أمامنا الغموض عندما ندرك أن المدن الساحلية ، مع الاحتلال الروماني ، بدأت تتدعم تحت مظلة روما وتشعر بالأمن من غارات قبائل الدواخل ، وتشهد بذلك الوسائل الدفاعية والمقابر وبقايا الأبنية والدارات .

وبعد تأمين طرق القوافل اتجهت لبدة إلى تنمية تجارة زاهرة وبحرية تجارية ، لكن ذلك الازدهار دام قرنين أوما يزيد قليلا وكنمت أنفاسه منذ القرن الرابع للميلاد غارات جديدة .

اننا لا نعرف كثيراً عن الاستور الذين هاجموا لبدة وأوية ونهبوها في عهد جيوفيانو . وهناك من يخلط بينهم وبين الجيتول ، ونحن لا نعرفهم إلا بواسطة قليل من المصادر الضئيلة التي أخبرتنا عن الاحتجاج الذي رفعه سكان لبدة ضد التقصير الأثيم للوالى .

ومنذ هذا الوقت بدأ النزوح ، دون شك ، من المدينة وانهارت التجارة ، وربما بدأت القرصنة من قبل هؤلاء المستعمرين الذين ضاقت بهم سبل العيش (هذا مجرد ظن) وعلى أية حال فان الفترة التاريخية الواقعة بين القرن الثالث والرابع للميلاد خافية عنا بالكامل تقريباً .

2

٥٠ الغزو الوندالي الذي انطلق من المغرب إلى المشرق عبر طريق طويلة بين أسبانيا والمغرب لم يصل إلى طرابلس إلا في سنة ٤٥٥ م أي بعد سنوات عديدة من سقوط قرطاجة ، فقد وجد الوندال شيئاً من المقاومة من قبل القوات الرومانية ، ولا يمكن القول بأن هؤلاء البرابرة قد اتخذوا من طرابلس مستوطناً قاراً ، بل اقتصروا على إخضاع المنطقة إلى جزية واستغلوا العناصر المحلية في غاراتهم المستمرة على سواحل صقلية وإيطاليا عبر البحر الأبيض المتوسط .

لقد قام الامبراطور يوليوس مايور يانو (٤٥٧ - ٤٦١) بأول محاولة لمواجهة القوة البحرية الوندالية وجمع بليقوريا أسطولاً بحرياً قوياً وكان يعتزم قيادته شخصياً ضد جنيسريق (ويقول بركوبيتوس ان الامبراطور ذهب بنفسه إلى ليبيا ليتفقد الوضع شخصياً ولكن الموت قد فاجأه غداً وهو يعد العدة للسفر .

وأعد الامبراطور ليون الأول بطلب من ريشمير و حامى الامبراطورية الرومانية الغربية حملة بحرية كبيرة لمحاربة الوندال واتباعهم الليبيين الذين أضحوا سوطاً على ظهر الملاحه في المتوسط ، وتجدر الملاحظة هنا أن بروكوبيوس يسمي كل سكان أفريقيا المقيمين غرب الأراضي البرقاوية بـ (موروسى) ، أما الرومان والمترمنون من المنطقة نفسها فيسميهم (لبيين) ولذلك فمن الصعب أن نفهم من كلام بروكوبيوس إذا يعنى أن سكان مقاطعة طرابلس هم في عداد الصفوف العريضة من القراصنة الذين كان يرسل بهم جنسريق لتخريب صقلية وإيطاليا واليريا (ألبانيا اليوم) واليونان وجزر الأرخبيل اليوناني .

أما الحملة التي أمر بها الامبراطور ليوني فقد عادت بنتائج حسنة في البداية إذ أن هرقل الذي أوفده هو نفسه إلى ليبيا قد أحتل طرابلس والمدن القريبة وترك بها السفن

واتجه بطريق البر إلى قرطاجة ، وحيث جمع جنسريق قوته ، وفي هذا الوقت نفسه هاجم جيش آخر جزيرة سردينيا وكانت قاعدة للعمليات العسكرية الوندالية في بحر ترين ، وانطلق السواد الأعظم من القوات البحرية اليونانية بقيادة باسيليسكولتهديد قرطاجة .

ولكن نتيجة المعركة البحرية التي التقى فيها الوندال باليونان في مياه قرطاجة كانت كارثة على اليونان ، سواء بسبب ماسال في يد القائد اليوناني من ذهب جنسريق ، كما قال بروكوبيوس ، أو بسبب وقوعه في خديعة نصبها لها الملك الوندالي ، وبالطبع فإن نتيجة هذه المعركة الكبيرة التي تقاوت فيها اليونانيون والوندال وشارك فيها المور والليبيون كانت خسارة طرابلس التي سبق أن أعيد احتلالها دون مشقة ، وما ترتب عليها من دعم لقوة الوندال .

وبعد وقت توطد ما يشبه السلام بين الامبراطورية الرومانية الشرقية والوندال ، أو بتعبير آخر ساد ما يشبه الهدنة ، ويظهر أن الولايات الايطالية التابعة للامبراطورية الرومانية الغربية كانت مستثاة من هذا الوضع ، فقد ورد في عهد آخر الأباطرة أنثيميو وأولييريو وجليسيريو وغيرهم ما يفيد بضرارة الغارات الوندالية في البحار الايطالية .

وخلال حكم خلفاء جنسريق وجهت قوات الوندال بالأخص ضد أهل البلاد الذين تمردوا وهددوا من جديد المدن الليبية ولم تسلم منهم حتى قرطاجة نفسها .

وفي عهد الملك تراساموند (٤٩٦ - ٥٢٣) ثارت قبائل طرابلس بقيادة كاباؤون وهو الذي يقول عنه بروكوبيوس (أنه زعيم المور القاطنين حول طرابلس) لقد احتدمت حرب شديدة بين أهل البلاد والوندال أحرز فيها كاباؤون نصراً عظيماً عليهم ، وقد ذكره المؤرخ بروكوبيوس وروى لنا دهاء هذا الرجل بتوسع . على أن قوة الوندال البحرية لم تتأثر كثيراً ، إذ أننا نعلم أنه خلال حكم هيلدريك خليفة تراساموند ، لم يثار القوط حكام ايطاليا لما أنزل بهم الوندال من اهانة ، وإذ كانوا يدركون مدى ضعفهم البحري وفي هذه الفترة عقد تحالف وصداقة متينة بين وندال أفريقيا والامبراطورية الرومانية الشرقية وكان يحكمها الامبراطور جوستينو ويدير شؤونها حفيده جوستينيانو .

وكما هو معلوم فإن الثورة التي جاءت بجلميرو إلى سدة العرش الوندالي اتخذت ذريعة لحملة بليسااريو ضد الوندال ، ويؤخذ مما نقله بروكوبيوس بتوسع ودقة أنه قبل بداية

الحملة ثارت طرابلس على الوندال بتحريض شخص يسمى بوزيتيوشس (وهذا دون شك من أحفاد المعمرين الرومان) وقد ساعدته جماعة صغيرة من اليونانيين أرسلهم إليه جوستينيان وصاربودنتيوس بعد ذلك بقليل سيداً على كل منطقة طرابلس .

يتكون الأسطول اليوناني وكان يقوده كالونيمو الاسكنداني من ٩٢ درموند (مركب شراعى سريع) يضاف إلى ذلك أسطول كبير جداً من سفن النقل (٥٠٠ سفينة) ، وقبل أن يصل هذا الأسطول حاول الوندال بمائة وعشرين سفينة مسلحة احتلال سردينيا وكانت متمردة ، وبذلك تسرت امكانية الانزال البيزنطى دون عائق في الوقت الذى كان فيه الجنود مضطربين بسبب ما بلغهم من قوة الوندال البحرية .

لقد جرت حملة بليساريو ضد الوندال كلها خارج الأراضى الطرابلسية ولذا فإنها لا تدخل في أغراض بحثنا هذا ولكننا نذكر فقط أن طرابلس باتت في أملاك البيزنطيين مثل سردينيا وكورسيكا والأراضى الأفريقية الأخرى التى خضعت للوندال ويقول بروكوبيوس أن بليساريو كان قد أوفد إلى طرابلس نجدة صغيرة من الجنود البيزنطيين لمساعدة بورنتيوس بعد معركة تريكاميرو التى هزم فيها الوندال وكان مهدداً من قبل الموروسى كالعادة .

لقد جرت الانتفاضة الكبيرة للأهالى في أفريقيا بعد سفر بليسارو إلى بيزنطة ويظهر أن هذه الانتفاضة لم تصل إلى طرابلس ، فقد انتهت المعركة الكبيرة في برقاعون بانتصار سليمان البيزنطى في مواقع إلى الغرب من ممتلكاتنا الحالية ، ونذكر فقط أن الحملة التى قام بها هذا الحصى البيزنطى كانت ضد فصائل محلية نفاها الوندال من قبل إلى سردينيا (يحتمل أن يكونوا من يسمون اليوم في سردينيا بربريتشيني) .

3

لم يعد الحديث عن طرابلس إلا في حوالى سنة ٥٤٤ عندما أوفد الامبراطور جوستينيان لحكم طرابلس حفيداً لسليمان البنزطى وأسمه سرجوس وأرسل أخاه حاكماً على المدن الخمس . وفي فترة حكم سرجوس هاجم أهل البلاد ويسميهـم بروكويوس لواتة مدينة لبدة وانتصروا على الجيش البنزطى في معركة ميدانية لأن لواتة لم ترض على الاجراءات التى اتبعها القائد سليمان في تقسيم غنائم الحرب .

وفي وصف الأحداث التالية التى زودنا بها أمين سر القائد بليساريون فان اسم طرابلس والمدن الأخرى بالمنطقة الطرابلسية لم يرد إلا مرة واحدة بمناسبة الحديث عن أهل قبيلة لواتة الذين تحركوا إلى بوزاق (١) من المنطقة المحيطة بطرابلس وانضموا إلى الثوار ضد الامبراطور سنة ٥٤٦ م ولكنهم انهزموا وتشتتوا .

وباختصار فأننا لا نعلم إلا القليل عن التاريخ السياسى والبحرى الطرابلسى أثناء الحكم البنزطى ، ونعلم استنتاجاً أنه بالرغم من أن المنطقة خضعت لمضايقات قاسية بسبب غارات السكان المحليون المتزايدة فإنه مع ذلك استعادت شيئاً من الحيوية وخاصة بعد سقوط حكم القوط الشرقيين في ايطاليا وربطت العلاقات البحرية والتجارية مع صقلية وكالابريا ويولية التى بقيت تحت حكم اليونانيين حتى بعد الغزو اللونقوبردى الكاسح ، ولابد أنها حافظت على علاقات متعددة مع طرابلس ، وليس بعيد أنه في الغزوات البيزنطية الكثيرة بأفريقيا ، التى يذكرها بروكويوس أن عناصر من صقلية وجنوب ايطاليا التحقت للعمل على السفن الحربية ، أو على الأقل على سفن النقل .

على أن سلطة الامبراطور على طرابلس كانت تتضاءل باستمرار حتى كادت تكون اسمية ويتبين ذلك من القصور عن مقاومة طلائع الفتح العربى في هذه المنطقة .

(١) بوزاق هى التى بسميها الرومان (BYZACENA) وهى مدينة سوسة (تونس) اليوم .

ومن البداية لم تستهدف (تلك الطلائع) الفتح بل الغنائم فقط ، ونلاحظ من خلال المصادر البيزنطية القليلة والمصادر العربية الوافرة أن خلفاء الرسول الأوائل بعد أن أصبحوا سادة على سوريا ومصر أطلوا على البحر الأبيض المتوسط ، ولكنهم لم يصبحوا سادة على البحار إلا فيما بعد ولذلك لم يغامروا في تقدمهم إلى ما وراء برقة . لقد جرت الغارة الأولى سنة ٢٢ للهجرة (٦٤٢ م) بقيادة عمرو بن العاص وبعد حصار لمدينة طرابلس دام شهراً واحداً احتلها وهدم جزءاً منها وبنى مسجداً ، ولم تذكر المصادر العربية من تولى الدفاع عن المدينة لمدة شهر ، فربما كانت هناك حامية بيزنطية انضم إليها السكان المترمون ولا يستبعد أن بعض القبائل المحلية قدمت يد المساعدة ، على أنه لم يتبين أن قائد القوات العربية قد ترك حامية في البلاد ولا بد أنه انسحب فوراً وبعد ثلاث سنوات جاء عبد الله (بن سعد بن أبي سرح) لاحتلال طرابلس واخضاع سكانها بحرية ثقيلة جداً (١)

وليس هناك ما يدل خلال كل هذه الفترة أن العرب امتلكوا سلاحاً بحرياً فقد كانت الحملات توفد عن طريق البر ولكن اليونانيين كانوا يمتلكون السفن ، وكانوا يترددون على الموانئ الطرابلسية لشحن زيت الزيتون المتوفر في البلاد ويدفعون في مقابله نقداً ذهبياً ، هذا ما رواه مؤرخ عربي .

واسم طرابلس والمنطقة الطرابلسية تظهر في تاريخ الاحتلال الأول لأفريقية من قبل العرب كمعبر للغزوات المتتالية التي أدت إلى احتلال كل المنطقة الساحلية حتى بلاد المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن السابع للميلاد بعد حروب طاحنة مع الحاميات البيزنطية وبشكل أشد مع القبائل المحلية ، وبالطبع فإن الامبراطورية الرومانية الشرقية لم تترك نفسها حتى تجرد من هذه المنطقة الهامة والغنية نسبياً بعد خسارة مصر وسوريا فاستنفرت كثيراً من القوات في صقلية وهي مهددة بصفة خاصة ، لتضعها في مواجهة العدو الغازي .

(١) أغلب المؤرخين يذكرون أن عمراً قام بحصار طرابلس شهراً ويقول الدكتور احسان عباس في « تاريخ ليبيا (دار صادر / بيروت سنة ١٩٦٧) » صحيفة ٢٠ وما بعدها « ولكن إذا أخذنا بقول البكري (وفتح عمرو نفوسة وكان أهلها نصارى) تبين أن عودة عمرو لم تكن عاجلة .. وأنها لم تتم قبل أوائل ٢٥ هـ . ويبدو أنه ترك ابن أوطاه وعقبة بن نافع ليحاولا فتح الجيوب الصغيرة » .

ويقول في صحيفة ٢٣ : (من الصعب أن نتصور أن عمراً لم يترك في البلاد مفارز من جيشه) . ومن ثم فإن ابن أبي سرح جاء إلى ليبيا سنة ٢٨ هـ لا سنة ٢٥ كما يقول المؤلف . (المغرب)

ومن المعلومات القليلة التي يقدمها لنا الكتاب البزنطيون وقد تستحق اهتماماً خاصاً ذلك الخبر حول ايفاد حملة بحرية جهزت في صقلية وبعناصر في الغالب من الايطاليين سنة ٦٨٩/٦٩٩ ، ويعود الفضل في اعادة احتلال برقة لهذه الحملة وليس ببعيد أن اقرار سلطة الامبراطور في تلك المنطقة قد جرّ معه اعادة احتلال طرابلس (١) .

نحن الآن بالضبط في فترة هي فوق كل شيء غامضة أندلعت فيها انتفاضة أهل البلاد وحقت نصراً مؤقتاً بقيادة كسيلة الذي آلت إليه السيادة على كل تلك المنطقة التي عرفها العرب باسم افريقية . وهناك خبر آخر عن حملة تحركت من صقلية في فترة لاحقة وربما جرت في نفس الوقت الذي جمعت فيه امرأة - الكاهنة الشهيرة - تحت لوائها أغلب القبائل المحلية وحاربت برجولة ضد العرب .

تلك كانت جهوداً سريعة الزوال وقد استطاع البطل حسان بن النعمان أن يتغلب وأن يقتل الكاهنة وأن يحطم مقاومة البربر وحلفائهم البزنطيين إلى الأبد واستولى استلاءً نهائياً على كامل الساحل الأفريقي من البحر الأبيض المتوسط من مصر إلى المغرب .

وبعد سنوات قليلة جرى اجتياز المضيق من قبل الأمير طارق وانتقل العرب إلى أسبانيا وقضوا على مملكة القوط الغربيين ، وامتدوا بعد ذلك حتى جبال البيرنيه وما وراءها من أرض فرنسا مهددين بتطويق المتوسط تطويقاً كاملاً ، يضاف إلى ذلك غزواتهم للقسطينية .

وهدأت النار اليونانية وسيف شارل مارتل ببالغ الخطورة ذلك الاندفاع وبقي المتوسط ولمدة قرنين تقريباً تحت رحمة العرب وخاصة بعدما سقطت صقلية في أيدي الأغالبة بالقيروان الذين استولوا عليها بعد غزوات متكررة سنة ٨٢٧ م .

ومن الصعب العثور على أخبار كحول طرابلس وخاصة حول علاقتها البحرية مع ايطاليا خلال هذه المدة كلها ، والخبر الوحيد الذي أمكنني الحصول عليه يتعلق بشخص يدعى (المستنير؟) من العرب المقيمين بطرابلس ، فقد قاد هذا حملة بحرية ضد جزيرة صقلية ولكنه فقد المراكب والرجال بغباء واستحق أشد العقاب . وهذه الإشارة بالرغم

(١) هذه الحادثة ذكرها المؤرخون العرب كذلك ، ومنهم ابوبكر المالكى في كتاب رياض النفوس صحيفة ٣٠ وما بعدها . وليس في هذه الغزوة اقرار أو اعادة احتلال بزنطى لبرقة بل الأمر لا يتعدى عملية قرصنة عادية فقد سبوا وقتلوا ولا ذوا بالفرار ، واستشهد في القتال زهير بن قيس البلوى وكثير من المسلمين . (العرب)

من قصرها فهي هامة جداً إذ تساعدنا على أن نفهم ان طرابلس في ذلك الوقت داراً لصناعة السفن والتجهيز البحري كانت الأساس لبعض وإن لم تكن لكل الغزوات على إيطاليا .

ويجب أن نذكر هنا أن المصادر المسيحية عند الحديث عن الغزوات العربية تكون في الغالب بعيدة عن الدقة ، وكثيراً ما تهمل ذكر المكان الذي وفد منه الغزاة وجنسياتهم أو المذهب الذي ينتمون إليه ، ويقتصرون عن تسميتهم بالكفار (١) أو أتباع محمد أو أية تسمية عامة مماثلة ، وبالمثل فإن المصادر العربية دأبت عندما تتحدث عن حملات بحرية ضد المسيحيين أو هجمات مسيحية عليهم أن تذكر كلمة عامة : الرومان (الروم) وهذا الاسم ينطبق على البزنطيين ولكن العرب عمموه على كافة رعايا بزنطة قديمهم وحديثهم أى صقلية وبولية وكالابريا وملقى ونابولي وحتى البندقية بل وعلى بعض المدن البحرية في أعالي بحر ترينو .

ومهما كان من أمر ، إذا كان علينا أن نعتبر أن مركز العمليات البحرية ضد صقلية ثم ضد إيطاليا هي تونس ، فمن الصحيح أيضاً أن نعتبر أن كثيراً من الحملات انطلقت من طرابلس حتى أن أحد الكتاب العرب من القرن العاشر للميلاد وصف مدينة طرابلس بأنها أكثر الأسواق رواجاً بالعبيد المسيحيين وخاصة منهم الإماء .

(١) سنرى في هذا الكتاب أن المؤلف كثيراً ما يستعمل كلمة كافر/ كفار عندما يريد التحدث عن العرب أو المسلمين (العرب)

4

في خضم الضباب الكثيف لاح بصيص من النور في أواخر القرن العاشر للميلاد بواسطة وثيقة غربية من البندقية .

ولا مرأ ان البحارة الصقليين (١) وبحارة جنوب ايطاليا وربما لحق بهم فيما بعد بحارة من جنوة وبيزا ، كانوا قد غامروا بالتجارة مع المدن المغربية ، بما في ذلك طرابلس ، حتى بعد الفتح العربي ، وقد ربط هؤلاء التجارة مع الحكام المحليين علاقات تجارية سليمة واستمرت هذه العلاقات حتى في الفترات التي يكون فيها الحلفاء في حرب مع المسيحية ، باستثناء انقطاعات قليلة .

هذه الفترة ذات مظهرين : انتشرت الغارات البحرية وأضحت تزداد أرتال العرب وهم يقودون سفناً سريعة الحركة ويهاجمون مدننا البحرية ويتزلون عليها نهياً وسلباً ويأخذون معهم السكان عبيداً ، ومن جهة أخرى ، تقاوم مدننا البحرية ، وتهاجم المدن الافريقية مستغلة فرص الخلاف الداخلي ، وفي هذا الجو نجد الكثير من المعلومات حول العلاقات التجارية .

وتذكر وثيقة من سنة ٩٧١ م أن رعايا دوقية البندقية كانوا يترددون على الموانئ الافريقية الخاضعة للمسلمين وخاصة المهدي وطرابلس وينقل هؤلاء البنادق إليها الخشب والحديد والسلاح ، وهذا هو التهريب الحربي بكل معاني الكلمة (كان ينقص المسلمين الحديد وخشب البناء) هذا بالرغم من صدور مراسيم بابوية تمنع تزويد الكفار بوسائل محاربة المسيحيين .

(١) في هذه الفترة صقلية وبعض الجهات من جنوب ايطاليا بلاد عربية اسلامية ، والاتصال - التجاري والبحري والبحري شىء طبيعي بين البلدان الاسلامية العربية خاصة وان القاعدة لصقلية هي القيروان - المغرب

وفرضت عقوبات صارمة على المخالفين وتضامناً مع تعليمات الامبراطور البزنطي وبإضافة عقوبات مدنية صارمة إلى العقوبات الكنسية فان الدوق كنديانو الرابع جمع المجلس الأعلى وقرر أنه من الخطايا الكبيرة مساعدة الكفار ، ومنع نقل أو بيع وحتى في شكل هدية الأسلحة والمجاديف وخشب البناء والألواح الخ .. (ولتفادي العقوبة قد يحتال التجار ويدعون بأنهم يمنحون السلعة مجاناً) ، وقرر المجلس أن لكل سفينة تبحر إلى أراضي الكفار يمكنها أن تحمل فقط ما يكفيها من السلاح للدفاع عن النفس إذا ما احتاجت إلى ذلك ، أما بالنسبة للأخشاب فقد سمح بنقل الألواح الخشبية التي لا يزيد طولها على خمسة أقدام وعرضها على نصف أوقيه - (٢٥ سم | تقريباً) أو بمعنى آخر الأخشاب التي لا تصلح لبناء السفن وسمح كذلك بالتجار في المغاسل والبراميل والمعاجن الخشبية وغيرها من المستلزمات المنزلية .

ولهذه الوثيقة قيمة خاصة فيما يتعلق بتاريخ البحرية الطرابلسية وتنبأنا بأنه كانت توجد بالبندقية سفينة جاهزة للإبحار إلى طرابلس فأمر الدوق بتفريغ كل الحديد والأخشاب الكبيرة منها وسمح لها بالسفر حاملة الأجزاء الخشبية الصغيرة فقط وهذه هي أول مرة يظهر فيه اسم طرابلس الأفريقية في وثائق البندقية وتعتبر شهادة ثمينة على وجود تجارة التهريب ، ولمبادلة هذه البضائع الإيطالية فان السفن تنقل إلى إيطاليا البضائع التي تتدفق على طرابلس من أفريقيا الوسطى وبصفة خاصة من فزان وإذا ما سكنت مصادرها عن تجارة مدن إيطاليا الجنوبية مع طرابلس فليس لنا أن نستنتج أن التجارة لم تكن قائمة ، وعلى أن كل تاريخ علاقات نابولي وقايطا وأمالفي مع المسلمين تدفعنا إلى الاعتقاد بأن حركة هذه المدن كانت أكثر نشاطاً من حركة البنادقة من المعلوم أن هذه المدن حافظت على سياسة لم تكن في الغالب عدائية لأولئك الذين يحكمون صقلية وبلاد المغرب في القرن التاسع والعاشر للميلاد ، وعقدوا معهم تحالفاً مستثيرين عليهم الاحتجاج والتهديد ولعنات البابوية ، وكانت هذه المدن تعيش على التجارة البحرية ووجدت أنه من الملائم أن تعيش في سلام مع أعداء المسيحية بضمنان مراكبهم من الهجمات القرصنية والكسب من التجارة بالبضائع التي يحتاج إليها الكفار .

5

جرى في نهاية القرن العاشر تحول متدرج غير مفاجيء ، فقد تولت المسيحية زمام الهجوم ضد الكفار مغتمة فرصة الخلافات التي نشبت بينهم بسبب التعصب المذهبي على أن الدول المسيحية التي سبق أن دافعت عن نفسها في وهن ضد الغزوات العربية لم تتوان أبداً في الرد على تلك الهجمات بتحريض من البابوات والأباطرة البزنطيين والامبراطورية الغربية بعد أن أعيدت إليها الحياة ، كان الهدف لتلك الحملات البحرية جزيرة صقلية أولاً ثم أسبانيا وبعد ذلك أفريقية في البحار الغربية كما كانت جزيرة كريت الهدف في الحوض الشرقي من المتوسط ، وتولت القيام بهذه الحملات المدن البحرية التي نمت قوة وسطوة ، متحالفة فيما بينها مرة أو مرتبطة بهذه أو تلك من الامبراطوريتين الرومانيتين .

أما طرابلس فقد كانت خاضعة للحكم الفاطمي منذ نشأة هذه الدولة القوية عند بداية القرن العاشر للميلاد ، وبعد كثير من الانتفاضات العنيفة والقمع الوحشي خضعت لبعض الوقت ثم انتقلت إلى حكم بني زيري وكانوا في البداية ولاية للخليفة الفاطمي ولكنهم استقلوا عنه تدريجياً ، ونعلم كذلك أنه في هذه الفترة كانت طرابلس تمر بفترة ازدهار تحققت بصفة خاصة بسبب التجارة مع المدن البحرية الإيطالية يضاف إلى ذلك أن هذه المدن وجزيرة جربة غير البعيدة والساحل الشرقي لتونس الحالية بمينائي صفاقس والمهدية كانت كلها مراسي للملاحة بين مصر وأسبانيا .

واختصاراً للأخبار التي يمكن اقتطافها من المصادر العربية فقد كتب بهذه المناسبة ميكاسي يقول : على الرغم من القوضى الضاربة (يشير إلى المحاولات المتعددة لتخاضع من الحكم الفاطمي بمصر) وما تبع ذلك من انقسامات فإن البلاد حافظت على درجة كبيرة من الازدهار والثراء والانتاج الزراعي كان على أية حال وفيراً ، ونمت بعض الصناعات .. وازدهرت التجارة . ويذكر المؤرخون العرب الثراء الذي يدره على طرابلس

النخيل والنسيج الصوفي والقطني ، وبالنسبة للتجارة تتحدث المصادر عن سرت حيث لا يشتهر التجار بالأمانة وعن طرابلس حيث يجرى التعامل في كامل الاستقامة ويتم تبادل البضائع ذات المنشأ الأوربي (يقول الكاتب : المنشأ الايطالي) على البضائع الواردة بالقوافل من الجنوب) .

١٧ ← إلا أن ذلك الازدهار أصيب بضربة قاسية جداً عندما انتهت على الأراضي المغربية القبائل العربية من بني هلال وبني زغبة وبني سليم العربية المتوحشة يخربون كل ما أمامهم ويدوسون عليه بحوافر خيولهم الملتهبة .

١٨ ← وبعد أن خرب هؤلاء المتوحشون الظامثون إلى الغنيمة والدماء (برقة دخلوا إلى طرابلس وما بعدها إلى بلدان افريقية (المهدية) والقيروان . لقد كانت الخسائر فادحة فعلا مع أنهم طردوا بعد وقت قصير ورمى بهم إلى الدواخل حيث اجتاحتها العناصر المحلية الذين ظلوا حتى ذلك الوقت مستقلين تقريباً وظلت المعارك بين القبائل والسلطة الحاكمة مستمرة لا تتوقف وحملت أشد الخسائر المادية ، وفي هذا الوقت الذي أضعف أضعف فيه الحلاف والحروب الداخلية الوحدة الاسلامية في أفريقية ، وقد كانت هشة من قبل ، جرى احتلال صقلية من قبل النورمان بمساعدة المدن البحرية الشمالية ، وبعد كفاح مرير تحققت الوحدة السياسية الايطالية الجنوبية تحت حكم آلتايفلا .

ومن السهل ادراك مدى التأثير الكبير لهذه الأحداث على العلاقات بين الدول الافريقية بما في ذلك طرابلس والمسيحية . وبينما كانت ايطاليا الجنوبية مقسمة بين اليونانيين واللقنوبارد ومدن بحرية استقلت ودب بينها الحلاف وأصبحت عاجزة عن حماية نفسها من الغزوات القرصنية الاسلامية المنطلقة من صقلية وافريقية جاء النصف الثاني من القرن الحادي عشر أي من سنة ١٠٦٥ م وما بعدها فتحررت صقلية وطردها أمراء آلتايفلا اليونانيين واخضعوا امارات اللوقنوبارد وأجبروا المدن البحرية على الاعتراف بالسيادة عليهم وشكلوا لأول مرة مملكة بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية ، وبضم ودمج القوات البحرية لجزيرة صقلية الكبيرة مع نابولي وآمالفي وقايطا وباري وأوطرانطو أمكنهم بسط السيادة على البحر الافريقي . ومن جهة أخرى فان جنوة وبيسا بعد ان اكتسبا الاستقلال الفعلي ، وربما لايزال اسماً فقط ، بدأتا لصالحهما تلك السلسلة من الحملات

ضد العرب التي كان يجب أن تمنحهما السيادة على سردينيا وتساعدهما على مهاجمة اللصوص في أوكارهم ذاتها وانزال أشد الهزائم بهم :

وبالرغم من أن هذه الأحداث لا تهم بشكل مباشر ، ودون ريب فإن لها تأثيراً سيئاً على قوة المدينة البحرية التي كانت فيما مضى قوة مسلطة على المسيحيين ، ومنها حملة بيسا وجنوة على سردينيا سنة ١٠١٥ / ١٠١٦ وضد مجاهد أمير دانية ، وحملة بيسا على عنابة سنة ١٠٣٤ وحملة بيسا على باليرمو لنجدة الكونت راجار النورماندى في سنة ١٠٦٣ م ضد المغز بن باديس أمير بني زيرى ووخاصة الحملة الجماعية ضد تيم أمير بني زيرى بالمهدية :

وبالتأكيد فإن الحديث عن حملات طرابلس ضد ايطاليا لم يعد له ذكر ، وتوقفت القرصنة (١) التي كانت سائدة (مع الأسف استعادت الحياة بعد مضى عدد من القرون) أما البحر الأبيض المتوسط فقد بدأ يتحول إلى بحيرة ايطالية بعد ان كانت بحيرة عربية .

(١) يقصد بالقرصنة هنا الغارات البحرية التي كان يشنها البحارة المسلحون النظاميون - وهي عمليات حربية قانونية تختلف عن القرصنة الحقيقية التي يمارسها الأفراد بصفته الشخصية بقصد السلب والنهب والتي احترفها المسيحيون بتوسع وتسببوا في الخاق الضرر حتى بمواطنيهم ، كما اعترف هذا المؤلف نفسه - أنظر الفقرة الأخيرة من صفحة ٣٣ في هذا الكتاب .

6

وتعتبر القوة البحرية العربية بدون شك منتهية مع بداية عهد الحروب الصليبية في السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر ، وبعد قليل وعلى تلك الموانئ نفسها التى كانت تتحرك منها سفن القرصنة وتعود إليها محملة بالغنائم والعبيد سيرتفع علم الصليب مرفرفاً .

لقد حافظ الملك راجار الأول على علاقات صداقة مع مملكة بنى زيرى بالمهدية ، أما راجار الثانى الكونت العظيم فقد جدد لأكثر من مرة اتفاقات الصداقة والتجارة مع أولئك الملوك ، ووضعت من طرابلس إلى تونس شبكة واسعة من العلاقات التجارية مع صقلية وأمالفى وقابطا وترانى وبارى ، وهناك بعض الوثائق ذات طبيعة جغرافية تحملنا على الاعتقاد بأن الرهبان فى ديركاوة (على بحر ترينو) كانوا يتاجرون مع البلدان الأفريقية بمراكب يمتلكونها ، على أن تلك الفقرة من ابن خلدون المؤرخ المسلم الذى أكد فيها أن ابن تميم (١١٠٧/١١١٦) قد أجبر الفرنجة (ربما يعنى النورمان والجنوبيين والسردنيين) على دفع الجزية له يجب اعتبارها اختلافاً مغرضاً ، إلا إذا كان المؤلف وهو من ذوى الضمائر ، يعنى بالجزية تلك المبالغ المتواضعة التى دأبت مدننا البحرية على دفعها مقابل الاستفادة من الفنادق والأحياء الكاملة بالموانئ الرئيسية حيث يزاول مواطنوها تجارتهم ويتمتعون فيها بامتيازات واعفاءات جمركية كاملة أو نسبية ولعل أقدم وثيقة عن هذه العلاقات كانت فى سنة ١١٥٧ ، وليست هذه الوثيقة معاهدة بالمعنى الصحيح وكلها

(١) قال ابن خلدون « وكان قد صرف همه الى غزو النصارى والاساطيل البحرية فاستكثر منها واستبلغ فى اقتنائها وردد البعوث الى دار الحرب حتى اتقته أمم النصرانية بالجزى من وراء البحر من بلاد أفريقية (وفى نسخة أخرى من بلاد الفرنجة) وجنوة وسردينية » الخ .. ولم أجد ذكر لهذا الخبر فى مصادر أخرى. (المعرب)

رسالة من أمير تونس عبد الله إلى كبير أساقفة بيسا (١) . وقد أشير فيها إلى شيء معتاد
وقديم إلى جالية بيسا المقيمة في تونس والمؤلفة من التجار وعائلاتهم وموظفيهم وخدمهم
وأهم جميعاً يتمتعون بامتيازات واعفاءات كبيرة .

على أننا لا نعرف متى تأسست هذه الجالية ولا إذا كانت هي الأولى أو أن هناك
غيرها قد استقرت في وقت سابق بأفريقية ، لقد نوقش هذا الموضوع طويلاً دون نتيجة
وقد تكون المنشأة الأولى للجاليات بأفريقية تعود إلى زمن التدخل النورماني في الحروب
بين ملوك الطوائف الأفريقيين .

لقد بدأ راجار النورماني بعد أن أصبح ملكاً ظلي صقلية سياسة تضمن له الحماية
أو على الأقل الرعاية أو بمعنى آخر السيادة غير المباشرة على السواحل الأفريقية التي تمتد
أمام جزيرته .

ومنذ عهد راجار الأول أخضع النورمان العرب الذين يحتلون جزيرة مالطة إلى
دفع الجزية وأنشئت هناك قاعدة بحرية للقوات أغلب رجالها من العرب اعتنق بعضهم
المسيحية بصدق أو بدونه . وفي سنة ١١١٧ م بعد اتفاق جرى بين راجار الثاني ووالى
قابس أوفد المالك النورماني حملة على تلك المدينة ، وكما يفهم من روايات المؤرخين
العرب المتضاربة (المصادر المسيحية سكنت عن هذه الحملة) فإن الحملة قد فشلت ،
بسبب قوة الأمير الزيرى البرية على ما يظهر وكانت أقوى من قوة الغزاة .

وجرت حملة ثانية في وقت لم يحدد في موقع أفريقي لم يحدد كذلك (لعله طرابلس)
وعادت تاجر أذبال الحبيبة .

وبعد سنوات قليلة (١١٢٣ م) هجم راجار الثاني على المهديّة وقد استفزته على
ما يظهر غارة على سواحل كالابريا ، ولكن اسطوله الذى يقول عنه المؤرخون العرب
بأنه كان قوياً ، ولى هارباً بعد أن ساد رجاله الخوف عند نزولهم إلى اليابسة وبالطبع
فإن مصادر النورمان تذكر شيئاً عن هذه الحملات غير الموفقة ونجد أنفسنا مضطرين

(١) - بيسا - بيزا - بيشا - جاءت في المصادر العربية القديمة بيشا ونطقها بيزا ونكتبها بالحروف اللاتينية
PiSa بيسا - (المغرب)

إلى أن نقبل ما تقوله المصادر العربية ، وهي دائماً مصادر غير موثوقة بسبب المبالغة على الأقل .

ويظهر أن حرباً بحرية قد لحقت هذه الحملات مع نزول المسلمين بالأراضي الإيطالية تبعثها هجمات للنورمان على مالطة وتحالف مع كونت برشلونة وهو أيضاً في حالة حرب مع بني زيري .

لقد انشغل الملك راجار الثاني بحملات أخرى (على نابولي التي خضعت فيما بعد وضد الأمراء النورمان الثائرين عليه) جعلته يترك فكرة إخضاع إفريقية ، لكنه عاد إلى مخطط الاستيلاء على المدن الإفريقية بعد أن أخذ كل انتفاضة وضمن لنفسه امتلاك المدن البحرية في جنوب إيطاليا .

وكانت جزيرة جربة المقابلة لقابس أول ما وقع تحت سيطرته فكانت تعتبر دائماً تابعة لطرابلس (١١٣٥) ، فقد استنجد الأمير الزيري الحاكم بالمهدية على عدوه أمير باجة بالملك راجار .

ولم يعمل الملك النورماني على توسيع ممتلكاته في هذا الوقت لانشغاله باهتمامات أخرى وتلك الممتلكات مضافاً إليها مالطة كافية لاعطائه السيادة المطلقة على البحر الإفريقي ، بيد أنه في سنة ١١٤٢ م ، بعد أن ضمن لنفسه السيادة غير المنازعة على جنوب إيطاليا اتجه مرة أخرى إلى إفريقية ، واستطاع أسطول صقلية أن يفرض على سلطان المهدية قبول التبعية للملك راجار ، وكان يقود هذا الأسطول أمير البحر الكبير جورج الانطاكي الذي حاول في السنة التالية احتلال طرابلس والتي كان واليها يعتبر نفسه مستقلاً عن السلطان الزيري بالمهدية . ويبدو في هذه المرة أن التدخل الصقلي قد حرض عليه أمير قابس والذي كان يسعى للتخلص من حكم بني زيري .

وقد فشلت هذه الحملة لانه في الوقت الذي كان فيه الجنود الصقليون الذين انزلوا تحت الأسوار يضيّقون الحناق على مدينة طرابلس بحصار شديد وكادوا يجبرونها على الاستسلام ، هبت القبائل الضاربة قريباً من المدينة في أعداد كبيرة واكتسحت المهاجمين وأرغمتهم على الالتجاء إلى المراكب في سرعة تاركين وراءهم الخيول والخيام والسلاح .

وبعد سنوات قليلة وفر جورج الانطاكي لنفسه قاعدة جيدة باحتلال جزيرة قرقنة (١١٤٥) وفي السنة التالية تحرك مرة أخرى في اصرار ضد مدينة طرابلس بأسطول يقول عنه المؤرخون العرب أنه كان يتألف من مائتي سفينة .

إن مصدرنا الرئيسي حول هذه الحملة هو ابن الاثير ، فقد أفادنا بأن طرابلس في هذه الفترة كانت تمزقها الخلافات بين الطوائف الدينية التي تتنازع على السلطة ولذلك فلإن النورمان لاقوا مقاومة في البداية لكنهم شعروا بعد ذلك بأن المدافعين قد تركوا الا الأسوار وأمكن للعدو الاستيلاء على المدينة في يسر وأفحش في القتل والنهب .

وبعد أن أشبع نهم عصابات الغزو نادى جورج الانطاكي بالأمان وأصلح سور المدينة وترك حامية صغيرة من الصقليين من بينهم على ما يبدو بعض المرتدين وسمح كذلك للسكان الفارين بالعودة إلى ديارهم وسافر بعد أن ولى عليها أبا يحيى رافع وهو من بنى مطروح .

ولاعادة تعمير المدينة التي عانت أقسى أنواع التدمير والحرب يبدو أن الملك راجار الثاني قد بعث بأعداد كبيرة من مسلمي صقلية وفتح ميناء طرابلس لتجارة الصقليين وتجار نابولي وإلى غيرهم من مناطق بحرية ايطالية أخرى ، حركتهم جميعاً إلى هناك امتيازات خاصة ولم ينض وقت طويل حتى أصبحت طرابلس سوقاً تجارية هامة للايطاليين.

ويقول الادريسي وهو الجغرافي والرحالة العربي المعاصر لراجار الثاني وقد عاش في كنفه وألف كتابه العظيم في الجغرافية (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١١٠٠ - ١١٦٦) ان طرابلس مدينة مزدهرة غنية وتقوم سفنها بنشاط كبير مع الموانئ الصقلية وخاصة سيراكوزة .

على أن احتلال جربة وطرابلس لم يبق عملاً مفرداً ، ففي سنة (١١٤٧ م) جرى احتلال مدينة قابس بشكل مؤقت باستسلام أميرها إلى الملك النورماني استسلاماً عفويّاً ، وخسرت بعد ذلك مباشرة بسبب انتفاضة السكان . وفي سنة ١١٤٨ م استولى أمير البحر جورج الانطاكي في حملة موفقة على المهديّة وصفاقس وسوسة ، وبذلك وقع الشاطئ الافريقي من طرابلس وحتى قرب مدينة تونس تحت سيادة الملك النورماني .

ويبدو أن الاحتلال لم يتوغل بعيداً إلى الدواخل وإذا ما قرأنا المصادر بانتباه فإنه يتبين أن قوات النورمان قد اقتصرَت على حماية المدن الساحلية ، أما كيف كانت العلاقات مع قبائل الدواخل فهذا مالا نعرفه .

وعلى أية حال فإن انشاء مراكز مسيحية ولاتينية قوية على امتداد الساحل الافريقي يشير إلى فترة تاريخية بحرية هامة جداً (على الرغم من أن العنصر الغالب لم يكن لاتينياً بل من أصل عربي) ويمكن أن نعتقد بأن للملك النورماني مخططاً واسعاً بالنسبة لتلك الأراضي المحتلة ، إذ أنه بعد الحرب التي اندلعت بينه وبين الأمراطور البيزنطي مانويل كومينو عاد فاستأنف الحملة الافريقية .

وتمت حملات أخرى بقيادة المرتد فيليب المهدوى الذى حل في القيادة بدلا من جورج الانطاكي أدت إلى احتلال بعض النقاط الأخرى من الساحل المغربي من تونس وحتى عنابة (١١٥٣ م) وقد أخضعت تونس إلى جزية سنوية (ولم تخل احتلالا قارا) على ما يظهر ، وتذكر المصادر بصفة خاصة الحملة على عنابة ، فقد استاء الملك راجار من صغر الغنيمة التي قدمها إليه أمير البحر في هذه الحملة وداخله الشك في إخلاصه له ، بحق أو بدون حق ، واعتقد أن أمير البحر ما يزال مخلصاً لأخوته في الدين فأمر بحرقه حياً .

7

وعندما مات راجار سنة ١١٥٤ وكان قد تلقب بملك أفريقيا ترك لابنه غوليالم منطقة ساحلية واسعة تمتد من طرابلس إلى الجزائر بعضها تم الاستيلاء عليه عسكرياً والبعض الآخر أخضع للجزية .

إلا أن غوليالم لم يعرف كيف يحتفظ بتلك الممتلكات الغنية الواسعة التي يحق لنا أن نسميها ممتلكات استعمارية . وبالنسبة لطرابلس كما رأينا، هناك ما يدل على ازدياد حقيقى لجماعات من المسيحيين . لقد تخلى عن السياسة التي صنعت المجد والفخر لراجار الثاني وأثنى عليها الكتاب المسلمون جميعهم مثل ابن الأثير والبيجاني وابن خلدون ، ففى أيامه قد بذل الاحترام الكامل وبالغ التسامح في المسائل الدينية التي كانت تشغل سكان شمال أفريقيا ، اضافة إلى نظام جباية ضرائب عادلة وسيادة الامن والنظام واحترام التقاليد والأعراف المحلية .

ومن جهة أخرى تراكم ضد ممتلكات غوليالم تهديد خطير من طائفة الموحدين فقد استولى عبد المؤمن منذ سنة ١١٥٢ م على عنابة وتابع رحلته المظفرة في تودة ورحل ثانية من غربي البلاد المغربية (الجزائر) في اتجاه تونس وسقطت هذه في يديه وحاصر المهديّة وطردت صفاقس وغيرها من المدن الساحلية الولاية المعينين من قبل الملك النورماني وانضمت إلى السيد الحديد تجلله هالة من القدسية (١١٥٦) .

أما الملك غوليالم فقد كان مشغولاً في حروب الاقطاعيين الذين دوخوا عرشه ، وعكس صفوه التهديد بالحرب من قبل الامبراطور فيديرك بارباروسا فلم يكن قادراً على معالجة أمر المستعمرات الافريقية ، ونقرأ أنه لتحرير المهديّة من الحصار أرسلت حملة بحرية جاءت بالمؤن وأعادت احتلال زويلة وهى ضاحية للمهديّة (١١٥٧) ولكننا لا نجد أية اجراءات أخرى للدفاع عن المستعمرات .

ولدينا ما يكفي من المعلومات حول طرابلس ، وعندما شعر الوالى المسيحى بازدياد خطر الموحدين أمر بلعن الغازى من فوق المنابر ، وهذا مخالف للاتفاق الموقع سنة ١١٤٦ عندما احتل جورج الانطاكى المدينة والذي بموجبه لا يجبر السكان على أن يقولوا أو يعملوا ما يخالف مشاعرهم في المسائل الدينية .

والواضح أن الأمر سياسى أكثر منه دينى ذلك أن الموحدين كانوا يدعون إلى حرب مقدسة ضد المسيحيين ، وشعر الوالى بأن السكان يهددونه بمغادرة البلاد ولهذا رأى أنه من الأفضل له عدم الاصرار على تنفيذ أمره ولم يفده ذلك في شئ . في هذا الوقت اتفق الشيخ رافع بن مطروح مع جماعته وقرروا التخلص من الحامية الصقلية بنصب كمين لها ليلا ، وبواسطة الحبال وقطع من الحجارة أغلقوا الشوارع في ظلمة الليل ثم نادوا للقتال . وامتطى الصقليون خيولهم وخرجوا من القصر باندفاع سريع لضرب الثوار فارتطموا بالحواجز ولم يعلموا عنها شيئاً ، فضاعت الخيول أما الرجال فقد قتلوا أو أسروا .

وانتهى بذلك الاحتلال النورمانى لطرابلس ، وبعد ذلك بقليل سقطت كل المستعمرات الافريقية باستثناء المهديّة التي دافعت بقوة وتعرضت لحصار دام شهوراً طويلة من قبل جيش الموحدين وعلى رأسه ملك الموحدين نفسه .

ولقد أرسل الملك غوليام للدفاع عن المهديّة أسطولا يتألف من مائة وعشرين غليوناً بقيادة بطرس الخصى ، وهناك خلاف شديد بين المصادر العربية والنورمانية حول حصار المهديّة .

ويذكر فالكاندو أن بطرس ، وهو من المرتدين عن الاسلام ، قد خان القضية المسيحية وولى هارباً يلاحقه أسطول الموحدين المؤلف من ستين غليوناً ، أما المصادر العربية فتروى القصة بإيجاز وتقول ان الأسطول الصقلى تقدم إلى المهديّة في ارتباك شديد بسبب عاصفة هوجاء واغتم الموحدون الفرصة المواتية فخرجوا يتعقبون الأسطول الصقلى بقوات تقل عنه بكثير وأجبروه على الفرار .

واستسلمت حامية المهديّة بعد مقاومة طويلة وقد سمح لأفراد الحامية بالعودة إلى صقلية ، ويظهر أن ملك الموحدين قد اضطر إلى قبول هذا العهد لان الملك غوليام

قد هدهد بقتل جميع المسلمين في صقلية ، على أن المراكب التي نقلت الحامية الشجاعة غرق أغلبها في البحر .

وهناك سؤال حائر ، لماذا تخلى الملك غوليام عن أى مخطط لاستعادة احتلال طرابلس والمدن الساحلية الأخرى ويسعفنا فلكاندو بالجواب ويقول الحصيان المتسيطرين بالديوان الصقلى منعوا بكل أنواع الدسائس ارسال حملات جديدة وهذا المصدر نفسه وهو مغرض على أية حال ذكر أن الملك كان يعتبر الممتلكات الافريلقية التي حققها أبوه ضارة لا تأتي بأى خير ومكلفة .

يبدو أن العلاقات التجارية بين السادة الجدد بالمغرب والدول البحرية بايطاليا ظلت منقطعة لمدة طويلة وان التعصب الديني كان عائقاً لمثل هذه المعاملات ، باستثناء جنوة التي وقعت اتفاقات تجارية سمحت بارسال شوان طريدة (١) أو شواني نقل سنوياً إلى كل من تونس وطرابلس وبجاية وسبتة ، وجاء ذلك مذكوراً في وثائق وتحريرات هامة . وبالنسبة لطرابلس ، فاننا نعلم ان رحلات تجارية جرت من سنة ١١٠٧ إلى سنة ١١٦٤ م وفيما بعد ذلك نجد ما يشير إلى أن أهالي بيسا كانوا على علاقات طيبة مع أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، وقد كانت لهم مبادلات حتى مع طرابلس مثلما كان لهم مع غيرها من الموانئ في دولة الموحدين الواسعة ، وذكر أن سفينة تابعة لليبييا محملة قمحاً استولى عليها قراصنة طرابلسيون فاتجه حكام بيسا إلى الأمير طالين منه تنفيذ الاتفاقات النافذة بينه وبين مدينتهم ، تلك الاتفاقات التي تشمل كامل الأراضي الموحدية .

وفي وقت لاحق ، حدد السلطان منصور الشهير وهو ابن يعقوب امتيازات بيسا في أربعة من الموانئ الأفريقية فقط علاوة على ميناء المرية الأسباني ، وهذه الموانئ هي : سبتة ووهران وبجاية وتونس ، وسكت عن طرابلس ، وحيث ان الاتفاق قد وقع سنة ١١٨٦ م ففي هذا الوقت وقعت المدينة وكل منطقة طرابلس في يد مغامر أرمني حليف للمرابطين ، ولم ينتصر عليه المنصور إلا في سنة ١١٨٧ في معركة الحامة . والسكوت عن طرابلس في هذا الاتفاق لم يأت عن رغبة من السلطان بل بسبب ان هذه المدينة لم تكن في ممتلكاته عند توقيع الاتفاق .

(١) - الطريدة : وتسمى في اللغات الاوربية بنفس الاسم العربي ، وهي من سفن البحر الابيض المتوسط وهي برسم الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرساً أما الحمالة (طريدة نقل) فيحمل فيها الغلة . - نقلت بتصرف من كتاب " البحرية في مصر الاسلامية صحيفة ٢٥٤ . (المغرب)

لقد غاب هذا الاعتبار عن يقظة «ماس لاترى» الذى استغرب أن المعاهدة التى نشرها أمارى لا تتحدث عن طرابلس ولا عن المهدية .

« و قبل ذلك بسنوات قليلة (١١٨١) استطاع الملك غوليالم الثانى ملك صقلية أن يحصل على استرداد المهدية وزويلة ، بل على رخصة لرعاياه للمتاجرة مع تلك الموانىء وهنا أيضاً فان السكوت عن طرابلس يفسر بأنها لم تكن تابعة في ذلك الوقت للملك الوجدوى .

ازدادت تحسناً العلاقات بين الدول البحرية الايطالية والمغرب في القرن الثالث عشر عندما تقلد الأمير أبو زكرى مؤسس الدولة الحفصية الامارة على أفريقيا (١٢٢٩ م) . لقد أوثق هذا الأمير الاتفاقات مع البندقية ومع فردريك الثانى ملك صقلية ومع بيسا وجنوة ، وأهم هذه الاتفاقات هى المعقودة مع بيسا ، فقد منح هذه المدينة الحق في اقامة مستوطنات تجارية في الأراضى الحفصية وبكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى - وذكرت أيضاً طرابلس إلى جانب قابس وسفاقس والمهدية وتونس . وتمتعت جنوة بمثل هذه الامتيازات وأقامت منشآتها التجارية على طول سواحل مملكة أبي زكريا الواسعة ، بقضاياها (القناصل) وكانت لهم سلطة قضائية على جميع مواطنيهم ويديرون شؤون الفندق ، ولهم أيضاً كنيسة صغيرة تابعة له . وللجنويين والبيسائيين والبنادقة بكل تأكيد فنادق وقناصل بطرابلس . وبعد استيلاء فلورنس على بيسا تولى الفلورنسيون الأمر وقامت نفس المنشآت في تونس وقابس وسفاقس وعنابة وبجاية مثلما قامت في طرابلس .

وبموجب هذه الاتفاقات فان مواطنينا (يعنى الايطاليين) تمتعوا بتخفيض خاص في رسم التوريد والتصدير الجمركى ، ويجب أن نقول بأمانة ان الاتفاقات كثيراً ما انتهت بسبب أعمال عنف بحارة غير منضبطين اندفعوا نحو أعمال غير مشروعة مثيرين احتجاج وانتقام رعايا السلطان .

والقرصنة هى في الحقيقة صحيفة مؤلمة في تاريخنا وقد زاو لها أناس اضطرتهم الحروب الأهلية إلى الهجرة ، بل وأحياناً حتى من أناس لهم اقامة مستقرة في بلدانهم لم يراعوا مصالح مواطنيهم والأخطار التى يعرضونهم إليها فيرمون بأنفسهم إلى القرصنة ، وبدون اعتبار لأى واحد يأسرون سفناً اسلامية ويستولون على بضائع الغير . وكما يقول حقاماس لاترى فان القرصنة كانت السوط الدائم الذى لا علاج منه خلال العهد الوسيط ، وكانت

السبب في فسخ الاتفاقات والأخطار التي أحدثت بالمستوطنات ، وكانت دافعاً على الاحتجاج والانتقام الذي لا حصر له ، ونضيف نحن ان القرصنة كانت السبب الذي من أجله يلعن اسم المسيحي ويحتقر عند السكان الأفريقيين .

وتلتزم الحكومات بموجب الاتفاقات أن تطارد القرصنة وأن تعاقب بكل قسوة أولئك الذين يصرون على مخالفة العهد ، إلا أن هذه الحكومات في الغالب لا حول لها تجاه هذه المخالفات وعليها أن تتسامح وأن تعتذر وأن تقدم التعويضات .

وبالطبع فإن انقطاع العلاقات الودية لوقت قصير أو طويل يتم عندما تقوم أعمال سياسية عسكرية خطيرة مهددة للسلام .

والحملة الصليبية التي قام بها القديس لويس التاسع ضد تونس سنة ١٢٧٠ م كانت لها نتائج خطيرة فقد اضطرت تونس إلى قطع كل متاجرة وخاصة مع الجنوبيين الذين زودوا الملك لويس بأغلب القطع البحرية ، على أن الجنوبيين غضبوا أشد الغضب عندما علموا أن ملك فرنسا لا ينوي الانجاء إلى الأراضي المقدسة بل يعتزم غزو تونس .

وعرف شارل دانجو شقيق القديس لويس كيف يستفيد من هذه الحملة . فقد وصل إلى تونس عندما مات أخوه وأمكنه أن يضعف الجبل الذي اعتاد ملوك تونس دفعه إلى ملك صقلية منذ أيام النورمان في مقابل الاذن لهم التزود بالقمح من الجزيرة ، ولا نعلم مدى تأثير حملة لويس التاسع على علاقات الجمهوريات الإيطالية مع طرابلس .

ومن جهة أخرى فإن تاريخ طرابلس تتجلى فيه تحولات سياسية متكررة وعنيفة ، أحياناً خاضعة كل الخضوع للدولة الموحدين ، ثم تظهر تمرداً عليهم ، وأحياناً أخرى تتمتع بشبه استقلال ويحكمها وال مستقل (لقد اعتبرها الموحدون في كثير من الأوقات عدوة لهم) وتتوقف بسبب ذلك صلاحية الاتفاقات المعقودة .

تتحدث بعض المصادر عن حملة عسكرية على طرابلس :

ففي سنة ٦٨٨ هـ - ١٢٨٩ وصل أسطول من ملك صقلية نجدة للأمير عثمان من البيت الموحدي ، وحاصر هذا الأسطول مدينة طرابلس لمدة ثلاثة أيام ثم دخل الجنود وبقوا فيها حتى اعترف الطرابلسيون بسلطة عثمان ، وعاد بعد ذلك الصقليون إلى

بلادهم ، والمقصود بدون شك هو أسطول الملك جاكومو دارقون وكان يقوده راجاردى لوريه ، فهذا هو أسلوبه الخاص المعتاد في تدريب بحارته وتوفير غنيمة سهلة لهم ، مثل ما فعل عندما احتل جزيرة جربة سنة ١٢٨٤ ، وهو اليوم يجمع في طرابلس غنائم وافرة بغارات على دواخل البلاد وحمل الأمير على أن يدفع له مبالغ كبيرة لمساعدته وبأسطوله على استرجاع السلطة .

ومن ناحية ثانية فان ملك صقلية صار يمتلك جزيرة جربة ، على الساحل الطرابلسي التي استولى عليها أمير البحر الصقلي وحصنها سنة ١٢٨٩ م حتى قال عنها مؤرخ عربي إنها كانت تثير الرعب في نفوس كل السكان القرييين منها . ومن المعلوم أن أمير البحر آلت إليه الجزيرة اقطاعا من البابا بونيفاس الثامن مقابل مبلغ سنوى يدفعه إلى السدة الرسولية . وفي سنة ١٣٠٦ فشلت محاولة ملك تونس لاعادة احتلال الجزيرة بسبب وصول أسطول قوى كان يقوده راجارون بن راجار ، ويبدو أنه في هذه المناسبة كان مع ملك تونس جمع كثيف من المسيحيين حاربوا معه بشجاعة ضد الصقليين .

9

ونتوقف قليلا لنرى مصير جزيرة جربة وقد كانت كما سبق أن عرفنا ، تابعة لطرابلس ولحمايتها من هجوم الطرابلسيين المتكرر وانتفاضات سكانها اقتطعها كورادو لانسيا الوصى على راجار الثالث لفردريك ملك صقلية . وبأمر من الملك جهزت حملات عديدة على الجزيرة كانت الحملات الأولى منها سيئة الحظ ، وتولى القيادة فيما بعد المؤرخ القطلوني المشهور رايموندو مونتانيير الذى استطاع اخضاع المتمردين إلا أنه بعد أن أعاد المتمردون هجرهم المعادى قتلهم جميعاً وأخذ الأطفال والنساء عبيداً إلى صقلية (١٣١١) ، وبقي سيداً على الجزيرة تابعاً لملك صقلية وعمرها بسكان جاء بهم من طرابلس . وبعد ثلاث سنوات تخلى عن السلطة لملك صقلية وبهذا آلت الجزيرة إلى التاج مباشرة .

لكن سوء ادارة الصقليين الذين ارسلوا لحكم الجزيرة أثارت انتفاضات جديدة لم تحرم من مساعدة أعداء الملك الارقوني . ونحن نعلم أن سفن روبرت دانجو ملك نابولى وسفن أخرى من جنوة (في تلك السنوات كان روبرت سيداً على جنوة وكان في حرب مع فردريك ملك صقلية) ساعدت المتمردين وزودتهم بالسلاح ومنعت ملك صقلية من تموين الحامية المحاصرة بالقلاع .

وبهذا فقدت جزيرة جربة وقرقنة مرة أخرى ، أما قائد الحامية بطرابلس السارقوزى وأبنه فقد رجمهما الناس . وحاول ملك صقلية أكثر من مرة إعادة احتلال الجزيرة ولكنهم لم يفلحوا أبداً كما سرى .

وبالنسبة لطرابلس فأنا نعلم أن السكان بالرغم من المعاهدات التى أبرمتها الدول المسيحية مع ملك تونس ، سيدهم الأعلى ، فإنهم كثيراً ما كانوا يسمحون لأنفسهم بالقبض على المسيحيين الذين يغرقون عند السواحل ويستولون على بضائعهم ويتبين ذلك من وثائق تتحدث عن الاحتجاجات المقدمة ووعود الترضية الصادرة من الملك .

هناك حادثة طريفة قد تفيد في اعطائنا فكرة عن العنف القرصني الذي كثيراً ما اندفع إليه المسيحيون في افريقية ، تلك هي حملة فيليب دوريا سنة ١٣٥٥ وقد أشاد بها الشاعر دانتيرو (٨) في « قصيدة الدم » (أنا أعتقد أن في هذه الاشادة ظلاماً) (١) وحتى تفهم الأهمية كاملة يجب أن نذكر أن جنوة وقد تداعت أركانها واختفت الأساطيل التابعة لدولة كانت تلجأ إلى أصحاب السفن الخاصة عندما تحتاج إلى تسليح سفن حربية وهؤلاء يتولون تسليح السفن ويستردون مصاريفهم مما يغمونه من العدو ، ولهذا الغرض يؤلفون فيما بينهم شركة تعاونية يسمونها بالكلمة العربية « معونة » .

كانت جنوة في حرب مع ملك أراقون منذ ١٣٥٥ الذي نزل بجزيرة سردينيا وأرادت أن تسليح حملة قوامها ستة عشر شينياً ويعتبر هذا العدد كبيراً في تلك الأيام وتولى فيليب دوريا هذه المهمة ، بيد أن الغرض الذي من أجله جهزت الحملة باء بالفشل ، وشعر بأنه يتعرض لخطر دفع التكاليف ، وبدون الحصول على موافقة جنوة اندفع في تيار القرصنة ، لقد بلغه أن انقلاباً من تلك الانقلابات المعتادة قد قام به مغتصباً السلطة شخصاً يدعى محمد بن ثابت ولمعت في رأس دوريا فكرة اغتنام الفرصة والاثراء على حساب الكفار . ويظهر أن دوريا قد اتفق مع أمير تونس الذي كان يتوق إلى معاقبة المتمردين . إلا أن دوريا قد بالغ في العنف والسلب والنهب (٢) .

وحسب ما روته المصادر الايطالية فإن دوريا قد تقدم بصفة صديق لطرابلس فاستكشف بانتباه دفاعات المدينة وقوة الحامية والوضع النفسي ، وتظاهر بعد ذلك بمغادرة البلاد بعد أن تزود بالمؤن إلا أنه عاد في ظلام الليل وأنزل جنده وهاجم السفن الطرابلسية الراسية

(١) جبريلى دانتيرو (١٨٦٣-١٩٣٨) هو شاعر ايطاليا الكبير ، أشهر بشعره - وما نشره من قصص وروايات كان كمن به مس في العقل والخلق ، فقد تغنى بالحرب الاستعمارية الايطالية في ليبيا ، وصار بعد ذلك من أركان الفاشية الكبار . - (المغرب)

(٢) تولى محمد بن ثابت بعد وفاة أبيه ولم يقم بأى انقلاب ، ولم يذكر المؤرخون العرب فيليب دوريا هذا بل ينسبون الغزو الى الجنوبيين وهم منه أبرياء وتبرأت منه جنوة كما تبرأت من أتباعه وكانت تخاف من انتقام الدول الاسلامية في افريقية الشمالية ، ومقاطعتها تجارياً وبحرياً . واتفقت المصادر العربية مع المصادر الغربية على ما كانت تتمتع به طرابلس من ثروة ورخاء ، والمبلغ الكبير الذي اقتسمه هؤلاء اللصوص دليل توفر ثروة هائلة يضاف الى المبلغ ما دفعه احمد بن مكى لافتداء المدينة وهو خمسون ألف مثقال من الذهب العيين (المغرب)

في الميناء كما هاجم القلعة وكانت خالية من المدافعين واستولى عليها فوراً ، أما ابن ثابت فقد هرب مع بعض السكان ومن بقى منهم قد قتل أو أخذ أسيراً وشحن دوريا في مراكبه سبعة آلاف نفس من النساء والأطفال ، انها أعمال لصوصية رهيبة ومنها ما يدل على ما بلغت طرابلس من ازدهار ، فقد بلغت الغنائم أرقاماً كبيرة جداً بالنسبة لذلك الوقت .

وإذا صدقنا ما قاله الفلورنس فيلاني بأن المشاركين في الحملة قد اقتسموا ١,٨٠٠,٠٠٠ فلورين ذهبي بدون النظر إلى ما أخفاه لنفسه كل عضو في الحملة ابتداء من المجدفين إلى المشرفين والمتعهد وصاحب الشواني .

وإذا كانت الأرقام صحيحة فإن طرابلس في تلك الأيام كانت غنية جداً .

ليست لفيليب دوريا أية قدرة على الاحتفاظ بملكية تحتاج إلى قوات كبيرة للدفاع عنها ضد غارات عربية محتملة ، ولذلك فكر في التخلص منها في أقرب وقت ، خاصة وأن المدينة التي ولد بها (جنوة) قد سارعت إلى استنكار أعماله ونفيه مع كامل أعضاء المعونة حتى تتبرأ من نهمته التواطؤ معه ولتفادى الانتقام من الجنوبيين المقيمين في مدن أخرى بالمغرب .

وأسرع دوريا إلى الرضوخ إلى الحاج أبي العباس أحمد بن مكى صاحب قابس وباعه طرابلس بمبلغ كبير دفع بعضه الأمير من ماله الخاص .

ولم تكن انعكاسات الأعمال القرصنية التي قام بها دوريا خطيرة كما كان يعتقد فطرابلس عندما هوجمت كانت في يد غاصب وصفه دانزيو بالحداد المسلم الجشع ، وهي لذلك في حالة عداوة مع أمير تونس الأمر الذي خفف من نقمة هذا الأمير ، على أن دوريا لم يشجع من قبله كما قد يشبه فيه . وكان العطف على الطرابلسيين الذين أسروا وبيعوا عبيداً في أسواق النخاسة شديداً وجعل هذا الخبر العلاقات التجارية بين المسيحيين ومسلمي أفريقيا صعبة لبعض الوقت .

وظلت طرابلس لسنوات قليلة في حكم أمير قابس الذي افتداها وحكمها من بعده ابنه إلا أن الانقلابات الكثيرة التي اندلعت في طرابلس سنة ١٣٧٠ جاءت بأحد أبناء بن ثابت المنتصب السابق ويدعى أبو بكر فاستولى على السلطة وكان أبرخ من والده فبعث إلى سلطان تونس بالبيعة ورفع إليه الأموال فاعترف له السلطان بالولاية على طرابلس .

10

ومهما كان من أمر فإن سلطان تونس لم يتوقف أبداً من الاعلان أنه سيد لطرابلس والواقع أن اتفاق التجارة الذي عقدته البندقية سنة ١٣٥٠ م مع حاكم طرابلس وقابس وسفاقس وجربة وقرقنة لم يذكر اسم سلطان تونس ، ولم يمر وقت طويل حتى استعاد السلطة العليا . ولهذا الاتفاق أهمية كبيرة إذ يرسم الحدود الشرقية للمملكة وقد جاء فيه أن للبنادقة الحق في الملاحة والتجارة من مصرانة إلى سفاقس ، وقد منحوا في تلك الوثيقة الحق في الحصول على فندق في طرابلس (أهم مواد التصدير من البندقية هي الزجاجيات في شكل كؤوس وأكواب وأباريق ولا يقتصر على بيع هذه المواد في بل تنقلها القوافل إلى فزان وإلى ما وراءها) والاحتفاظ بقنصل له صلاحية قضائية على جميع أعضاء المستوطنة وعلى أولئك البندقيين أو رعايا البندقية الذين يصلون بجزراً . وتحدث الوثيقة نفسها عن تسهيلات جمركية وخاصة بالنسبة للتزود بملاح الطعام .

ونفهم من تلك الوثيقة كذلك أنه احتراساً من هرب البحارة المسيحيين فقد جرى العمل في طرابلس وغيرها من الموانئ على نزع المجاديف والقلاع من كل سفينة قادمة لمنعها من السفر فجأة وقبل دفع ما عليها من رسوم جمركية . واستطاع برنابو جيرالدو المبعوث البندقي الحصول على الموافقة بإلغاء هذا الاجراء غير المشرف وتعويضه بضمان مالي .

١١ وهناك شيء آخر ملحوظ ذلك هو الموافقة للبنادقة بسك العملة الذهبية بطرابلس ^{١٦٥٥} وبجتم الأمير (وهذا ما كان يسمى بزنتى عربي) .

ولكن العلاقات الطيبة كثيراً ما كان تذكرها الأعمال القرصنية ومن الجدير بالملاحظة أن القرصنة عادت تمارس من قبل المسلمين ، وقد توقفت منذ القرن الثالث عشر وقد وجدت أوكاراً حتمية للقرصان في القرن الرابع عشر لاعلى طول السواحل الجزائرية في بجاية وعنابة بل حتى في المغرب الشرقي بالمهدية وطبرقة وقرقنة وطرابلس ، ويتوغل

القرصان حتى السواحل الإيطالية يتزلون عليها نهباً وسلباً ويهاجمون السفن التجارية ويقيمون الأسواق لبيع العبيد من المسيحيين .

ومنذ سنة ١٣٦٢ وبعد احتجاجات عديدة يائسة أرسلت البندقية سفيراً لها ليقدم احتجاجاً رسمياً على الاعتداءات والاستيلاء على المراكب والقبض على البحارة من قبل رعايا سلطان تونس وطرابلس وليطلب التعويض عن الأضرار الناجمة عن ذلك .

ولدينا ما يفيد ، بعد سنوات قليلة مما تقدم ، بأن البيسانيين والارقونيين بصقلية بعد أن أزعجتهم اعتداءات القراصنة أرسلوا إلى تونس سفيراً ليطلب تحرير الأسرى ولتجديد الاتفاق التجاري على أسس جديدة . أما جنوة فقد نظمت سلسلة من الرحلات لخفر السواحل من طرابلس إلى الجزائر وكحماية لشواطئها ، واستولت في كثير من المرات على سفن القراصنة ، وأرسلت هي أيضاً إلى تونس سنة ١٣٨٣ سفراء من أجل اطلاق سراح أسرى من الطرفين .

ومع استمرار الغارات القرصنية قامت محاولات للاتفاق بين مختلف الدول البحرية لضرب تلك الأوكار ، إلا أن المنافسات بين جنوة والبندقية أبعدت هذه عن الدخول في الحذف وقد سبق لها أن تعهدت بتقديم خمسة من الشواني ، وجهاز للحملة من ييسا أصحاب السفن الخاصة بخمسة من الشواني ، أما الملكة مارية الارقونية فقد ولت منفردى دى كبارامونتي قيادة ثلاثة شوان لعمل حاسم ، وقدمت جنوة اثني عشر شينيا إلى شقيق روفائيلي آدورنو ، وبذلك فقد كانت الحملة جماعية بالرغم من أن مصالح الدول المشتركة كانت متباعدة ، والصقليون استهدفوا استفادة امتلاك جربة أما الجنويون والبيسائيون فكانوا يأملون ضرب أوكار القراصنة والحصول على تعويض عن الأضرار التي لحقت بهم ، وفي الوقت المناسب انسحب الجنويون من الحملة عندما دفع لهم السلطان تعويضاً كبيراً ورد إليهم مصاريف التجهيز والتسليح وتبعهم في ذلك البيسائيون ، أما الصقليون فانهم نزلوا في جزيرة جربة حيث تقلد كيارا مونتي ملكية الجزيرة سنة ١٣٨٨ م .

ووجدت طرابلس نفسها مرة أخرى ملاحمة وتجربتها عاجزة بما فرضه وجود الحامية الصقلية بجربة غير أن امتلاك الجزيرة بدون التصرف في قوة بحرية دائمة يبقى خالياً من

أية قيمة ، لذلك عادت القرصنة تفتك بعنف وتحولت قليلا نحو الغرب وانزلت الأضرار حتى بالسواحل الفرنسية ، وأثارت هذه الغارات غضب شارل السادس ، وأرسل إليه الجنويون السفراء يدعونه إلى التعاون معهم لمكافحة هؤلاء الاصوص . وعقد الاتفاق فوراً وفي هذا الوقت كانت فرنسا تستعد لسيط نفوذها على جنوة وأخذت هذه الحملة مظهر الحملة الصليبية ضد الكفار إلا أنها في حقيقتها كانت تستهدف استعادة ضمان تجارة جنوة في البلدان الافريقية .

قاد الاسطول جوفاني شتوريوني وقاد قوات الانزال دوق بريون عم الملك شارل السادس وتتألف هذه القوة من فرسان فرنسيين من بينهم الفارس المغوار كوسى ، والتحق بهذه القوات كونت دربي وغيره من فرسان الانجليز ، إذ وقعت قبل هذا الوقت بقليل هدنة بين فرنسا وانجلترا (١٣٩٠) واتجهت الحملة لا إلى طرابلس بل إلى المهديّة وكانت تعتبر أخطر وكر للقرصنة ، واستطاعت هذه المدينة أن تصمد للمداومة بفضل ما وصل إليها من نجده أمير تونس والقبائل المغربية التي أسرعت إلى النجدة بقيادة ابن أو حفيد الأمير وتحملت قوات الانزال هجمات متكررة من هذه القبائل .

وبعد شهرين من الحصار والقتال وجدت الحملة نفسها في وضع سيء إلا أن الجنويين عرفوا كيف يستفيدون من الوضع باستمالة ملك المهديّة ليجنح إلى الاتفاق والالتزام بدفع مبلغ كبير لمدينة جنوة في فترة خمس عشرة سنة تعويضاً عن الأضرار التي أصابت هذه المدينة بفعل القراصنة . وأضطر الفرنسيون إلى الانسحاب مع بالغ غضب الملك شارل .

وإذا كانت جنوة قد استطاعت أن تسوى خلافاتها مع أهم ملوك المغرب الشرقي فإن البسانيين والصقليين قد وجدوا أنفسهم معرضين إلى حرب قرصنة شديدة ومدمرة من قبل رعايا ملك تونس وشهدت صقلية تجدد الغارات والدمار ونفثى القراصنة التونسيين والطرابلسيين في جنوب بحر ترينو ، وجعلوا الملاحة فيه مغامرة خطيرة ، وهوجمت جزيرة جربة وأعاد الكفار (١) احتلالها ، وفي طرابلس والمهديّة وتونس وقابس أحيل الايطاليون المقبوض عليهم في البحر أو على السواحل إلى العبودية وكانوا كثيرين ودمرت سيراكوزة ونهب .

(١) يعنى المسلمين .

سعت المدن الإيطالية لأبرام اتفاقات مع ملك تونس ولم يكن ذلك سهلاً ، وفي سنة ١٣٩٧ فقط استطاعت بيسا أن تعيد فنادقها وتسترجع رخصة التردد على مواني الدولة (بما في ذلك طرابلس) بالسفن التجارية ويشترط أن يكون القنصل نفسه هو المسؤول عن الأضرار التي يحدثها مواطنوه ، وتم لها ذلك بعد أن استنكرت مساهمة مواطنيها في الحملات السابقة .

أما البندقية فظلت بعيدة عن الحرب واستطاعت الحصول على تجديد الاتفاقات السابقة بسهولة ويسر (١٣٩٢) كما تمكنت من تحرير عدد صغير من البندقيين أو من رعايا الجمهورية الذين استولى عليهم القراصنة ودفعت مبلغاً كبيراً لتحريرهم في شكل منحة . وبالنسبة لصقلية ، فقد أوفد مرتينو دارقونة الكبير ، وكان يحكم الجزيرة باسم ابنه مرتينو الاول ، السفراء عدة مرات للتفاوض على بعض الاتفاقات ولكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب الأحوال الداخلية في مملكته من جهة ولمسألة احتلال جربة المعركة للجو من جهة أخرى إلا أنه عندما خسر الملك الجزيرة على أثر انتفاضة من سكانها ، حاول إعادة الاستيلاء عليها مفاوضاً في ذلك أمير طرابلس ، وقد كان هذا كالعادة متمرداً على سلطان تونس وقد اتى به سكان جربة .

أما الخبر الذي نجده في الوقائع الصقلية والذي يفيد بأن علم ملك صقلية قد رفع في طرابلس سنة ١٣٩٣ فإنه يعود بكل تأكيد إلى هذه الفترة ، ولكن وقوع الحادث نفسه أمر مشكوك فيه ، وعلى الرغم من ذلك فلا يستبعد أن الأمير المتمرّد قد استنجد بالملك مارينو ورفع علمه ليحمي نفسه من هجوم أمير تونس عليه ، ولكن الملك أوفد بدون شك بعض السفراء في تلك المناسبة ولم يكن قادراً على إرسال مساعدات ولذا يمكن التفكير بأن الحكم الصقلي على طرابلس كان قد اقتصر على رفع مؤقت للعلم .

ونعلم في الواقع أنه خلال فترة حكم مارتينو الشاب الذي تولى الحكم سنة ١٣٩٥ وبعد أن خسرت جزيرة جربة نهائياً قد فاض من أجل السلام أو بالأحرى من أجل الهدنة ، أمير تونس الذي استعاد في هذا الوقت حكمه على طرابلس ، ولم يسفر التفاوض عن حل نهائي . وعندما جمع الملك الفونسي دارقونة فوق رأسه تاجي نابولي وصقلية عادت الحرب بين مملكة صقلية وتونس شديدة متجددة ، وقاد نائب الملك ووالى صقلية بييترو دارقونة الحملة البحرية بنفسه ولكنه لم يتوصل إلى هدف إعادة احتلال جزيرة جربة

فأغار على قرقنة ونهبها وهدد بعد ذلك تونس وأجبر الأمير على إطلاق سراح المسيحيين
رعايا صقلية ونابولي الذين وقعوا في الأسر بتونس (١٤٢٤) ولا نعرف إذا جرى التسريح
مقابل فدية أو بدونها .

وفيما بعد قاد الملك ألفونسي نفسه حملة ضد جربة إلا أن النجيدات التي وردت
إليها فوراً من ملك تونس أجبرت الفونس على الانسحاب ، ويظهر أن الملك رأى ضرورة
استئناف مفاوضات السلام بعد هذه الهزيمة ، ولا نعلم ما تمخضت عنه .

11

من الوثائق التي نشرها أماري وماس لاترى وغيرهما عن هذه الفترة يستحق أن نذكر تلك الوثائق التي تتحدث عن وجود خطوط ملاحية حكومية منتظمة بين المدن البحرية الإيطالية ومملكة تونس مع حق استعمال مرفأ طرابلس لتوقف قصير .

ويبدو أن أول من أنشأ هذه الخطوط هم البنادقة الذين اعتادوا كل سنة وفي بداية الموسم الجديد طلب المزايدة على وضع عدد من الشواني التجارية ، تحت أمره مقدم ومسلحة بشكل تستطيع به الدفاع عن النفس إذا ما هوجمت من قبل القراصنة ، لتعمل على نقل البضائع وتتجه بها إلى موانيء متفق عليها سلفاً في مواعيد معينة وإلى موانيء محددة بكل دقة ، ولتعود بعد ذلك إلى البندقية في مواعيد محددة كذلك ومحملة ببضائع أخرى من الموانيء التي توقفت بها .

ويسمى هذا النوع من الرحلات « مودة » وفي العادة تبحر رحلتان في السنة الواحدة إلى كل المقاصد التالية : البحر الأسود ، القسطنطينية ، مصر ، شمال أفريقيا ، فرنسا ، فياندر ، إنجلترا .

وتهمنا هنا فقط مودة شمال أفريقيا والتي ترسو في سيراكوزة وطرابلس وجربة وتونس وبجاية والجزائر ووهران وبنينش (١) ، والمغرب ، وقد فرض على المودة في طريق العودة أن ترسو بميناء أومينائين من موانيء أسبانيا بالبحر المتوسط وأن تتوقف في تونس وتعود بعد ذلك مباشرة إلى موطنها . ^{طه: لزوم ١٦-١٦}

وفي العادة وفي الظروف السلمية فإن المودات التجارية التابعة للبندقية ترسو في ميناء طرابلس مرتين في كل سنة ، وتفرغ حمولتها من الدمقسى والفوستاني (٢) (وهو قماش

(١) بنينش واسمها بالاسبانية Penon de Velez de la Gomera.

هى أربع جزر كبيرة تجاه مدينة الجزائر .

(٢) تعنى هذه الكلمة اليوم ثوب السيدات حتى اذا كان من الحرير الخالص المطعم - بالجواهر ، مع أن الفستان هى كلمة ايطالية تعنى القماش القطنى الرخيص . (المغرب)

شعبي) والأقمشة الأخرى المتنوعة المستوردة في الغالب من لومباردية وتشحن بدلا من ذلك زيت الزيتون والتبر وريش النعام والشمع النحل وغير ذلك من البضائع الليبية والقرطانية وعلاوة على ذلك هناك خط آخر يسمى خط الترافق (١) ويصل هذا الخط إلى أهم المراسى في المغرب ويربطها بالاسكندرية في مصر وتعمل به بعض الشواني التجارية لتكون في الغالب اثنتان فقط ، تغادر البندقية إلى الاسكندرية حيث تفرغ حمولتها من بضائع البندقية وتشحن البضائع المتجهة إلى طرابلس وتونس والجزائر ثم ترجع من حيث أتت تنقل إلى مصر بضائع المغرب وأخيراً تشحن من الاسكندرية البضائع المحمولة إلى إيطاليا . ويسافر على هذه الشواني الحجاج المغاربة المتجهون إلى مكة أو العائدون من الأراضي المقدسة .

وكان سلطان مصر وأمراء أفريقية يعلقون أهمية خاصة على هذين الخطين الملاحيين وخاصة خط الترافق الذي يشكل أكثر الخطوط أمناً وأكثر وسائل النقل اقتصاداً بين الموانئ المصرية والمغربية ، ومعلوم أنهم يحاولون تفادي التورط العسكري الذي قد يسبب في انقطاع الحركة الملاحية .

وتتصرف البندقية طبقاً للمعلومات التي يزودها بها قناصلها ، فتسمح أو تمنع رخصة الإبحار وتكون أكثر دقة تستثنى من المزايا العلى تلك الخطوط أو الموانئ المعرضة لخطر العدوان بالقبض على السفن .

^٧ ومن المفيد الإضافة أنه عند افتتاح المزايا لا يتقدم إليه أحد لأن المقاولين يخشون مخاطر الحرب ، وعندئذ يمنح مجلس الشيوخ جوائز إبحار ، أى بدلا من قبض أجرة نأجير الشواني وهى ملك لدار الصناعة ، يدفع إلى المقاولين مبالغ لتشجيعهم على الإبحار وفي بعض الحالات يمنع الإبحار إذا كانت أخطار الحرب واضحة غير مشكوك فيها استمرت هذه الخطوط طوال القرن الخامس عشر وحتى السنوات الأولى من القرن السادس عشر ، ولكن تفشى القرصنة والفقر الذى حل بالبلاد والحروب المشتومة التى اكتوت بها البندقية ، وفوق كل ذلك احتلال أسبانيا لطرابلس وبعض الموانئ الأخرى

(١) خط الترافق هو تعريب Linea di Traffico ويظهر أن Traffico أخذت من كلمة ترافق العربية - (المغرب)

كما سنرى فيما بعد ، جعلت البندقية توقف هذه الخدمات ثم تلغيها ، ونذكر في هذا المجال أنه بعد سنوات قليلة من الاحتلال الأسباني لطرابلس أى في سنة ١٥١٨ أصدر مجلس الشيوخ إلى سفيره ببلات شارل الخامس الأمر ليرفع احتجاجاً ضد التعريفة الجمركية المفروضة في وهران وطرابلس من قبل الحكومة الأسبانية تلك الرسوم التي جعلت نقل السلع أمراً مستحيلاً . ومن المعلوم أنه إذا كان الرسم ١٠٪ عن القيمة مقبولا عندما كانت بلاد افريقية مستقلة فان رفع الرسم إلى ٢٠٪ أو أكثر أحيانا يصبح مدمراً .

ولم يتبين أن لجنوة خطوطاً بحرية ثابتة وأسلوبها يختلف تماماً عن البندقية والملاحه فيها حرة وفي يد الأفراد ، وهناك ما يفيد أن كثيراً من سفنها كانت تتردد على ميناء طرابلس ، على أن هذا التردد لم يكن دورياً ولم تنظمه أحكام خاصة .

ولدينا كثير من الإشارات عن وجود حركة واسعة للجنويين على سواحل المغرب ويكفي الإشارة إلى مذكرة احتجاج قدمها سنة ١٤٥٢ في جنوة مبعوث السلطان أبو عمر حاكم تونس ، وجاء فيها ، بالإضافة إلى حالات احتيال خطيرة أنزلت الضرر بالمسلمين من قبل أصحاب المراكب الجنويين ، ذكر حادث مقدم سفينة شحنت قمحاً من تونس لينقل إلى طرابلس لحساب بعض التجار العرب ، لكن المقدم اتجه به نحو جنوة وباعه لفائده وتدل هذه الحادثة على أن خدمات النقل من وإلى طرابلس كان يشارك الجنويون في القيام بها . وهناك شكوى أخرى تتعلق بعملة زائفة روجها بعض الجنويين في صفاقس وتونس .

أما فلورنس ومنذ أن ضمت إليها بيسا وليفورن سنة ١٤٢١ فقد اتبعت جزئياً النظام البندقي وزاحمته بدون مراعاة .

وقد أسست مفوضية البحر ، وهي الجهاز الذي يتولى كامل الخدمات البحرية خطين بحريين لشواني الترافق ، أحدهما لأعلى المغرب ، وهذا ما يهم هذا البحث ويتوقف في كل من قاييطا ونابولي وساليرنو ، ، وباليرمو ، وتراباني (سماها العرب طرابنش) وتونس وطرابلس وهذا الخط يشحن بالإضافة إلى المنسوجات وغيرها من طوسكانة إنتاج إيطاليا الجنوبية وصقلية ويتولى نقلها إلى الموانئ الرئيسية بالمغرب الشرقي ، وفي مقابل

ذلك يشحن إلى صقلية وإلى نابولي وطوسكانة ، الشمع النحلي والجلود والتمر وریش
النعام والتبر وغير ذلك .

أما الخط الثاني المسمى افريقية الغربية فيمر بفرنسا المتوسطية وبرشلونة وجزر الباليار
والمغرب والجزائر وفي وقت لاحق وبعد انقطاع الخطين لمدة طويلة بسبب الحروب
الايطالية وصعوبات أخرى ، عادت الخدمات بعد أن دمج الخطان في خط واحد واستثيت
طرابلس من هذا الخط ربما لان هذه المدينة كانت تصلها الشواني البندقية ولا توفر مجالا
للمتنافسين .

ونجد في ملحق البراءات العربية بدار المحفوظات في فلورنس التي نشرها ميكيلي
أماري ، قائمة موانئ الخط الجديد وتلخصت بالنسبة لافريقيا في موانئ تونس وعنابة
والقل وبجاية ووهران وعون والكد ، أي كل موانئ الجزائر والمغرب ، ومن المغرب
الشرقي مياه تونس فقط ، وبدراسة سلسلة الاتفاقات التي عقدتها مدينة فلورنس ابتداء
من اتفاق سنة ٤٢١ - ١٤٢٣ وهو الأول نرى أن هذه المدينة قد حلت محل بيسا في كل
ما كان لها وحتى في امتلاك الفنادق والصلاحيات القنصلية ويعتقد أن فندق وقنصلية
طرابلس قد استوعبتها فلورنس ضمناً .

12

اقترب عهد جديد لأفريقية ، عهد الاحتلال الأوربي وما زالت آخر بقاياه في المغرب حتى هذا التاريخ .

وكما هو معلوم فإن البرتغاليين في عهد الملك جوفاني الأول احتلوا سبتة وقد حركتهم النزعات الدينية والأغراض التجارية والسياسية للقيام بذلك ، وفي هذه المدينة أسسوا قاعدة برية وبحرية ضد الكفار (يعني المسلمين) في ١٤١٩ واحتلوا بعد ذلك طنجة ومواقع أخرى حصينة على سواحل الأطلسي والمتوسط . وتبعهم القشتاليون وكانوا في حرب ملوك المسلمين في غرناطة ، وحاولوا احتلال بعض المواقع على الساحل المغربي ولكنهم لم ينجحوا في البقاء طويلا إلا عندما قامت وحدة بين تاج قشتالة وتاج ارقونة بزواج ايزابيلا وفرديناند ، ونمت القوات تبعا لذلك وسهلت احتلال مليلة وبعض المواقع الأخرى (١٤٨٢) والتي صارت بعد ذلك قواعد بحرية لحرب صليبية تستهدف قطع الاتصال بين مسلمي أسبانيا ومسلمي أفريقيا .

وبعد سقوط غرناطة فإن الحملات قد تواصلت بتحريض من الكاردينال خمينس وعلى أثر انتفاضة غرناطة في بداية القرن السادس عشر . احتلت المواقع في المرسى الكبير وبنينوش (١٥٠٥) الواحدة تلو الأخرى وجاء بعد ذلك دور وهران (١٥٠٩) وبجاية (١٥١٠) وغيرهما من الموانئ الجزائرية . أما الجزائر نفسها فقد عرضت دفع جزية وقدم سلطان تونس نفس العرض ، وامتد الخوف من السلاح الأسباني إلى نابولي وصقلية وسردينيا وإلى كل أفريقيا .

وشعرت طرابلس وهي من المدن الأفريقية الشرقية بشدة وطأة الحكم الأسباني لمدة طويلة وقد خلف آثاراً عميقة .

وقد ربطت الحملة على طرابلس بكل تأكيد بالحملة السابقة ، ولكن كانت لها دوافع خاصة ، ليست من تلك الحركة العامة التي بدأت بأسبانيا بل تعود إلى تلك المسألة القديمة والمتجددة المتعلقة بأمن صقلية والدفاع عن الجزيرة من القرصنة المغربية واتخذ الكفاح المتجدد بين المسيحية والاسلام في الشرق والغرب ذريعة لذلك .

وصحيح ان الحملة قد رفعت العلم الأسباني وقادها مقدمون أسبان وإنما هي في الواقع أداء ايطالي أو بالأصح صقلي . كانت قاعدة العمليات مدنية سيراكوزة ، واعدت مواد الإغاشة كما أعد السلاح والذخيرة في صقلية ، وأشرف نائب الملك بصقلية على أعمال التجهيز ، وقد تألف الأسطول من عشرة شوان وثلاثين سفينة من نوع كارافيل علاوة على خمسين أخرى للنقل مجهزة بالمدافع وعدد من الأباريق والفوستاو وبعض المراكب الأخرى الصغيرة كلها صقلية .

ولدينا تفاصيل هامة عن الحملة جاءتنا من التقرير الذي أرسله بدرو نافا رو في يوم ٢٠ يولية ١٥١٠ إلى نائب الملك في صقلية والتي وصلت إلينا حتى بواسطة يوميات ماريو سانوتو ، وأكثر من ذلك الرسائل التي بعث بها بتسينودي طونسيس وجيرولامو أدورنو التي نشرها ١٩١٢ ماريولونقينا . ونحن نعلم أن الأسطول أفلح متجهاً إلى طرابلس بعد أن حط في مالطة وانضمت إليه بعض الفوستات وبعض المرشدين الذين يعرفون السواحل المغربية معرفة جيدة .

ونعلم كذلك أن بين الشواني إلمشرة هناك اثنتين إيملاكهما أثنان من الجنويين هما باتيستا وفالاتزو جوستينياني ، يقول دي طونسيس عنها قد سلحتا قسراً ويمكن تفسير التسليح قسراً باخضاعهما لأمر منع الاقلاع في موانيء صقلية ثم اخضاعهما لمرافقة الحملة ، ويبدو أن تسليحهما كان متمماً لقوات نائب الملك التي عرف بأنها كانت غير كافية .

ومن هذه الوسائل نفسها يتبين أن هناك بين المشاة والبحارة ثلاثة آلاف من المرتزقة الايطاليين وهم أولئك المغامرون الذين كانوا يعملون بكل الجيوش الفرنسية أو الأسبانية على حد سواء ، خلال القرن السادس عشر ، وقد استعملت الشواني لعملية قطر السفن ، وهي عملية قاسية ، بسبب الرياح المعاكسة . وبسبب قلة خبرة المرشدين والرياح المعاكسة

وشدة التيارات وجدت الحملة نفسها فجر يوم ٢٢ يولية (يوم القديسة مجدلين) بعيداً جداً عن النقطة التي تقرر النزول بها ، وأضاع الأسطول وقتاً كثيراً للوصول إليها . وعندما وصلت السفن المقطورة والشواني القاطرة إلى الموقع المقرر ألقى المشاة بأنفسهم في الماء تحميمهم طلقات مدفعية السفن وكانوا قد نقلوا إلى الشواني وإلى المراكب الأخرى ذات الغاطس القليل . وفي وقت قصير نزل إلى الأرض ٦٠٠٠ رجل دون أن تقوم حامية طرابلس برد جدى . واقتصر تحركهم على الاستكشاف على ظهور الخيل وهم في حالة اضطراب بادية ، ولا يبدو نية الهجوم وترك قائد الحملة ثلاثاً من السرايا لحماية قاعدة الإنزال وأرسل ثمانية للهجوم ، ويبدو أنه أنزل بعض قطع المدفعية لضرب الأسوار وقد رد على قصفها بالعرادات والاقواس وقاذفات النشاب ، ونصب العلم المسيحي الأول بين القصر وباب العرب وعندئذ أقفل المدافعون عن أنفسهم القصر والمسجد الكبير ، بينما كان غيرهم يدافعون عن باب البحر لكنهم غلبوا على أمرهم بعد مقاومة عنيفة .

وكتب نافارو إلى نائب الملك في صقلية بمبالغة واضحة قائلاً : لقد مات من العرب خمسة آلاف أو أكثر ، أما دى طونسيس ، احتراماً للحقيقة ، فقد أنقص خسارة العدو إلى ألفين ، أما الخسائر من المسيحيين وقد قال عنهم نافارو كانوا قليلين ، فقد ذكر طونسيس أنهم ١٥٠ شخصاً وتحدث نافارو عن الأسرى وقال بلغ عددهم ستة آلاف يبعوا في سوق النخاسة بصقلية ونقل الأمير عبد الله إلى صقلية وبقي أسيراً فيها . واستطاع غير هؤلاء من السكان الفرار نحو الواحات القريبة .

حكمت المدينة لجنة مؤقتة يرأسها قائد الميدان ، وجرى الاستيلاء على المراكب القليلة الراسية في الميناء والتي على تلك السفن التي وصلت بعد أيام قليلة إلى الميناء بدون أن تعلم بالتغير القائم في البلاد .

قرر نافارو القيام بحملة بحرية للاستيلاء على جزيرة جربة بعد أن فشلت محاولة اقناع الحامية بها على الاستسلام وقد اعتبرت الجزيرة تابعة لطرابلس وهي قاعدة بحرية ممتازة في القناة التي تفصلها عن الأرض الثابتة ، نزلت القوات بجربة يوم ٣٠ أغسطس بعد استسلام نجدة من نائب الملك بصقلية ، وعند الهجوم على القلعة احتدم القتال فكان الحظ فيه سيئاً للمسيحيين إذ عم بينهم العطش وجار عليهم الحر وأنهكهم التعب ، فهجم عليهم العرب ،

وما كان من المهاجمين إلا أن يطلقوا سيقانهم للفرار ، ووصف هذه الكارثة كما وردت في رسائل دى طونسيس وحوليات فيرو كان له صدى مثير جداً في صفوف الجيش الأسباني . ويجدر أن نذكر قسوة البحارة الذين كانوا يردون الفارين من الجند بالسهام خوفاً من أن الماء الباقي لديهم لا يكفي لرحلة العودة .

وبلغ عدد القتلى والأسرى ألف رجل ، وأخطر من ذلك كله هو ما أصاب السمعة العسكرية الأسبانية من أضرار وحتى الحامية الصغيرة التي تركها الأسبان في قرقنة ، وهي مرسى ممتاز للأسطول قد هجم عليها العرب بعد ذلك بقليل وقتلوا كل أفرادها . وتحمل الأسطول خسائر أخرى كبيرة عند العودة إلى صقلية بسبب العواصف .

على أن احتلال طرابلس قد عوض تلك الخسائر ، والحققت المدينة سياسياً وإدارياً بمملكة صقلية وعين عليها والٍ أشرف على تحصينها وتوسيع رقعة الأرض المحتلة فيها بالتفاوض مع السكان القاطنين في الواحات القريبة تارة وبالحرب معهم تارة أخرى .

ولم يفد النظام الاحتكاري الذي وضعته أسبانيا لمدينة طرابلس وحتى إذا زاد من أهميتها كقاعدة بحرية إلا أنها فقدت كل ازدهار تجارى بعد غلق الميناء في وجه سفن الدول المسيحية الأخرى بالبحر الأبيض المتوسط .

13

طلبت البندقية دون جدوى من الملك فرديناند الكاثوليكي أولاً ثم من شارل الخامس فيما بعد أن يسمح لمراكبها التجارية بالتجارة مع طرابلس وكما سبق أن ذكرنا فإن شواني النقل التابعة لجمهورية البندقية كانت تتردد على هذا الميناء وتقدم خدماتها إلى مختلف موانئ المغرب ، وعبرت حكومة البندقية عن الأضرار التي تنجم عن منع رسو مراكبها والمكاسب التي تجنيها أسبانيا من الرسوم على الاستيراد والتصدير ، وفشلت كل محاولة . ويمكن أن يقال من وجهة نظر تجارية أن احتلال طرابلس لم يساهم إلا جزئياً في خراب البندقية ، لأنه في ذلك الوقت بدأت استفادة البرتغاليين من طريق الهند البحرية .

وأكثر من ذلك هنا عاملان خطيران اعطيا مظهراً جديداً للبحر الأبيض المتوسط فور احتلال طرابلس ، ومنعطفاً جديداً لتاريخ البحرية : اتساع قوة الأتراك العثمانيين من آسيا إلى أفريقيا باحتلال مصر - واستقرار خير الدين بربروسا ذلك القرصان الجريء الرهيب في الجزائر . وبالتعاون مع أخيه عروج احتل جزيرة جربة سنة ١٥١٣ وجيجل والجزائر وأعلن عروج نفسه ملكاً عليها ، ودحر كل الأساطيل الأسبانية التي أرسلت لقتاله (١٥١٦) . وبقي خير الدين ملكاً على الجزائر بعد موت أخيه ، وتقدم لطلب مساعدة وحماية السلطان التركي العثماني مباعاً له سلطاناً على الجزائر متعهداً بدفع الخراج والمساعدة بالأسطول ، واستلم خير الدين في مقابل ذلك منشور النولية على أفريقيا .

ومنذ ذلك اليوم (نوفمبر ١٥١٩) لم يسلم أى مكان على طول السواحل المتوسطية الخاضعة لأسبانيا كما لم تسلم أية بلاد مسيحية تقع في الحوض الغربي للمتوسط من غارات الشواني والغلايين الجزائرية باستثناء فرansa ، فقد انطلقت أخطر أشكال القرصنة من عقالها وانهدت ضد السفن التجارية التي تذرع المتوسط ، وتعرضت المدن والسواحل إلى غارات مفاجئة واقتيد الآلاف من المسيحيين إلى أسواق النخاسة في أفريقيا .

وبينما كانت أساطيل أسبانيا وأساطيل ممتلكاتها في إيطاليا وخاصة أساطيل نابولي صقلية تحاول في تطوافها عبثاً كبح ذلك العنف إذا لم يتيسر لها قمعه كانت طرابلس تشكل بالنسبة لأسبانيا قاعدة بحرية عظيمة وهامة وحصناً قيماً ، ولكن قد التهمت الأسبان مشاكل أخرى فاقتصروا على حماية طرابلس ولم يستخدموها كما يجب ولم يدافعوا بما فيه الكفاية عن جزيرة جربة (عادت إلى حكمهم بخديعة مفاجئة سنة ١٥٢٠) كما لم يدافعوا عن البنيونش والمواقع المحصنة الأخرى في المتوسط .

وفي سنة ١٥٣٠ قد أسند الدفاع عن طرابلس إلى منظمة فرسان المستشفى أو كما كانوا يسمون فرسان القديس يوحنا ، وكانوا قد منحوها ملكية جزيرة مالطة (وهي اقطاع لمملكة صقلية) بعد أن طردهم الأتراك من جزيرة رودس وبعد مقاومة عنيفة (١٥٢٢) .

| وتحدثنا الأخبار التاريخية للمنظمة | أنه منذ سنة ١٥٢٤ | بحث | عن خطط استقرار الفرسان في طرابلس ، ولهذا الغرض أرسلت لجنة مؤلفة من ثمانية من الفرسان لزيارة قاعدة طرابلس وتقديم تقرير عن التحصينات ، وهذا التقرير المقدم هام إذ يبين أن أعمال التحصين وخاصة جهة البحر التي قام بها الأسبان لم تكن قادرة على المقاومة بوسائل مماثلة لتلك التي استعملها الأتراك في حصار رودس .

وفور امتلاك المنظمة لطرابلس اندفعت بنشاط في أعمال التحصين وتوسيع دائرة أعمالها على طول الساحل وفي دواخل البلاد ، وهنا وجد الفرسان عقبة كأداء أمامهم في شخص قرصان شهير هو خير الدين كرماني المعروف بطارد الشياطين وقد استقر هذا في تاجوراء وبدأ يتحرش بطرابلس وانفق الفرسان مع مولاي حسن ملك تونس وجهازوا حملة كانت سيئة الحظ ، وعندما احتل برباروسا تونس أصبحت الأحوال في طرابلس أشد خطراً .

وفي تلك الأثناء أنشأ الفرسان سرية بحرية صغيرة اشتركوا بها في حملات بحرية أخرى لحماية المتوسط من القرصان وانضموا سنة ١٥٣٥ بهذا الاسطول الصغير إلى الحملة التي قادها أندريا دوريا لطرد بارباروسا الرهيب من تونس .

لقد نجحت الحملة كما هو معلوم إلا أن رفاق برباروسا هربوا من تونس واستقروا في تاجوراء فزادت بذلك العراقيل أمام توسيع المنشأة المسيحية في طرابلس ، ففي سنة ١٥٣٦ تعرضت هذه الحامية إلى خطر هجوم خير الدين ، طارد الشياطين ، عليها ودهمها خطره فجأة وكادت أن تقع في أيدي المهاجمين ، على أن هذا الخطر قد أقنع المنظمة بأن ترسل من مالطة تعزيزات هامة للدفاع عن ذلك الرباط المسيحي وجاء على رأس هذه القوة ايطالى يدعى بوتيجيلا ، الذى نصب بعد ذلك والياً على طرابلس وقد استطاع هذا الاستيلاء على قلعة القائد وهى رباط قوى بناه كرمان بالقرب من طرابلس وعلى طريق تاجوراء .

ولكن هذه القلعة سقطت بعد وقت في يد الكفار (يعنى المسلمين) بفضل ما أبداه مراد أغا من جهد ، وهو من أصل ايطالى مرتد عن المسيحية وكانت هذه القلعة مصدر إيذاء شديد لطرابلس حتى أن الفرسان استنجدوا بشارل الخامس لارسال التعزيزات لتكون المدينة قادرة على مقاومة الهجوم وهددوا بترك المدينة في حالة الامتناع .

ويبدو أن الوالى باريسو دى لافاليت الذى تولى فيما بعد رئاسة المنظمة قد أجرى أعمالاً هامة واقترح على المنظمة نقل مركزها من مالطة إلى طرابلس ، وكان يعتقد أنه يمكن الصمود بشكل أفضل من هذه المدينة ومقاومة موجات العنف الشديد والمذابح التى يقوم بها الأتراك حلفاء فرنسا وبمساعدة قوة القرصان المغاربة الذين أخذت تتفشى أعمالهم في قلب البحر الأبيض المتوسط وخاصة بعد المعركة المشؤومة له بل قبل بعد فرار القوات المسيحية من ميناء برافيا وهزيمة الأسطول المسيحى في الجزائر .

وازداد قلق شارل الخامس فأمر أخيراً بتقديم مبلغ مالى كبير لأعمال التحصينات إلا أن السفينة التى نقلت هذا المال وقعت في يدي درغوت باعث الرعب في المتوسط ولم تنفذ نتيجة لذلك أعمال التحصين .

14

لقد ازداد الخطر على طرابلس بعد فشل محاولة أندريا دوريا في جزيرة جربة بفضل براعة درغوت البحرية ، وكان قد أقام فيها وكره (١٥٥١) ، وازداد الخطر على طرابلس هذه الواحة المسيحية في صحراء بربرية ، كما كانت تسمى بحق ، وتحيط بها دول وأقوام مسلمون وأعداء وتتصدى المدينة بصعوبة بالغة للحشود العربية المتقضة حتى الأسوار .

ودرغوت ، وهو العدو العنيد الذى تنازعه الشهية لامتلاك تلك المدينة التى كانت غنية جداً ذات يوم ، لم يترك وسيلة للاستيلاء عليها وزادت رغبته بعد وفاة سيده القديم ومعلمه برباروسا ، وفي حين كان يعد العدة لمهاجمة طرابلس كان يشن الغارات سنوياً وينهب السواحل الايطالية ويفلت بكثير من الحذق من ملاحقة الأساطيل الأسبانية والصقلية وأسطول نابولى وجنوة العامل لحساب أسبانيا .

ولكن قوائمه غير كافية للحملة على طرابلس فاستعان بسيده السامى سلطان القسطنطينية وحصل على موافقة قيام الأسطول التركى العظيم بقيادة سنان باشا بالحملة على طرابلس سنة ١٥٥١ .

ظهر الأسطول التركى العظيم أمام طرابلس بعد أن حاول حصار مالطة دون فائدة وقد سبق له أن حاصرها قبل ذلك بسنوات قليلة ، ولم يجد الأسطول التركى أى تصدٍ المسيحية ، وليس هذا هو المجال لمناقشة مسؤولية المعلم الأعظم دوميد الأسباني حول عدم كفاية النجدة التى أرسلت إلى دى فالير حاكم طرابلس ويكفيها أن نذكر إنه للدفاع عن المدينة ومساعدة للفرسان فقد عززهم ببعض المئات من مشاة « كالابريا » وهم حسبما تقول بعض المصادر ، ليسوا أبطلالاً في القيم والشجاعة .

ولا تتوقف كذلك عند تصرف دارامون الفرنسى الذى أرسله ملك فرنسا حليف الأتراك إلى السلطان الذى وافق على الذهاب إلى سنان باشا لاقتناعه بالتوقف عن الحملة

ولكنه اقتصر على حماية الفرسان الفرنسيين ولم يأبه لعمليات الحصار التي كان يقوم بها سنان مع نائبه درغوٲ ، وأخيراً ليس هذا مجالاً لمناقشة ما أكدته نيكولاى وهو شاهد عيان ، أن سقوط طرابلس يعود إلى خيانة جندى فرنسى وأن الصقليين والكالابريين قد تمردوا وطلبوا بأعلى صوت الاستسلام مهددين بالفرار إلى صقلية ولكن المفيدالتوقف للنظر في موقف أسطول أسبانيا وأساطيل ممتلكاتها الإيطالية وأسطول جنوة المستأجر الذى يقوده اندريا دوريا حيث لم يتقدموا لنجدة المحاصرين على الرغم من معرفة خبر الهجوم على طرابلس منذ وقت طويل ومن دوام حصارها عدة أيام ، وترك طرابلس تسقط بدون حتى التلميح بالهجوم على الأسطول التركى يدل على الضعف الشديد الذى أصاب البحرية المسيحية في المتوسط وهو برهان جديد على الآثار المؤلمة لسياسة شارل الخامس البحرية ، ونتيجة وليست الأخيرة لخطأ اندريا دوريا المشؤوم في ميناء برينيا .

إن مذبحة الحامية العربية والقبض على الجنود الإيطاليين واسترقاقهم خلافاً لعهد الاستلام كل ذلك يعود إلى فساد ذمة التركى أو كما يقول نيكولاى إلى نصيحة درغوٲ .

وفي البداية لم ينل درغوٲ ما كان يتوق إليه في امتلاك المدينة فقد عين سنان للقيادة مراد أغا وهذا قرصان آخر ساهم في حصار المدينة (١٥٥١) .

حاولت المنظمة استعادة طرابلس سنة ١٥٥٢ وقد أعد للحملة البطل ليوني سيروزى المعروف باسم مقدم كابوا « كان قائد الأسطول الفرنسى الذى شارك مع الأتراك في الحرب ضد أسبانيا وكان يحمل اسم فرانشيكوالأول » وتألفت هذه الحملة من جنود أغلبهم من الإيطاليين ومن فرسان إيطاليين وفرنسيين وكانوا تحت أمره لافاليت وهو الذى عين معلماً أعظم للمنظمة فيما بعد .

وقاد شيبون سيروزى حفيد أمير البحر شلة من المتطوعين الإيطاليين والمدفعيين المرتزقة ونزلت هذه القوات قرب زوارة واحتلت المدينة وهنا تعرضت الحملة لهجوم بقوات متفوقة على رأسها مراد أغا واضطرت إلى الانسحاب بعد أن منيت بنحسائر فادحة وقد جرح ليوني سيروزى نفسه وتميز الفرسان الطليان أثناء الانسحاب .

وفي هذه السنة نفسها التى هاجم فيها درغوٲ سواحل كالابريا ونهبها وعاد إلى

طرابلس بعدد كبير من الأسرى عين والياً على طرابلس وتعهد بدفع الخراج والمساهمة بالسفن والسلاح في الحملات التركية .

كان درغوت يخرج كل سنة للقرصنة لحسابه أو بالاشتراك مع الأسطول التركي ويتزل بالبحرية والسواحل الإيطالية خسائر كبيرة جداً ، لقد استولى على سفن من البندقية وجنوة ونابولي ونهب مدينة ريجو وسورينتو وقبض على قائد الشواني الصقلية ووضعها مجدفاً في سفينة القيادة واستطاع درغوت ببراعته أن يفاجئ أندريا دوريا ، الشيخ المسن ، نفسه واستولى منه على سبعة من الشواني فزال يقف بالمرصاد لشواني منظمة مالطة وملاً طرابلس بالأرقاء من المسيحيين وكان أغلبهم من الإيطاليين ولم تكفهم السجون حتى بعد أن بيع بعضهم إلى الناس وبعد الهدية التي أرسلت إلى استانبول من الجنسين وافتداء عدد كبير منهم بأسعار عالية جداً لا تتناسب مع الأسعار السائدة .

وتعين درغوت كذلك في قيادة الأسطول التركي (١٥٥٣) وساهم في انشائه منذ البداية بثمانية عشرة بين شينية وغلين وأضاف إليها بعد ذلك ضعف هذا العدد من المراكب وفي هذا ما يدل على قوة البحرية الطراباسية وشارك في انشاء بحارته السكان المجاورون لغريان وترهونة وبني وليد ، علاوة على سكان جربة التي اضافها بالقوة إلى ممتلكاته (١٥٥٨) .

ان التحالف الوثيق بين هنري الثاني ملك فرنسا والساطان التركي قد أعطى للكفار (يعني المسامين) السيادة غير المنازعة في البحر الأبيض المتوسط ، وسمح لدرغوت بالتطواف في هذا البحر من أنصاه إلى أنصاه دون أن يحدى عقاباً ، فكان يتزل بشواطئه يحرق ويدمر الأراضى ، ودامت هذه الأعمال حتى رجعت إلى الشرق أغلب قطع الأسطول التركي ، لقد كان الفزع الذي يثيره الأسطول الطرابلسي شديداً حتى أن أقدر البحارة المسيحيين في ذلك الوقت لا يخطرون بالخروج في البحر حتى بقوات كبيرة إلا بعد التأكد أن درغوت بعيد عنهم ولا تختمل ملاقاته .

ومن حسن حظ المسيحية أن دب الخلاف بين الفرنسيين والأتراك وفشلت المخططات الكبيرة التي دبرها هنري الثاني بسبب ارتشاء هؤلاء الأتراك واستغلال اندريا دوريا

هذه التزعة فيهم خير استغلال ، أضف إلى ذلك اشمئزاز الفرنسيين من القتال تحت قيادة قرصان . ويبدو أن الامبراطور شارل الخامس قبل نهاية ملكه حاول رشوة دوغوت ليحوله إلى جانبه فعرض عليه مملكة في أفريقية أكثر اتساعاً من طرابلس ، كما فعل مع برباروسا في سنة (Prevesa) بريفيسا المشؤومة .

أما بالنسبة للخلاف بين درغوث والفرنسيين فقد تم بحثه بتوسع في مقال بعنوان « التحالف الكافر » نشر في المجلة البحرية لسنة ١٨٩٦ ، لقد استطاع الملك هنري الثاني في حرب كورسيكا كما هي الحال في حرب سيانا أن يتزع قيادة الأسطول من دورغوت وأن يولي أمير بحر آخر هو بباله باشا ، وقد تبين أن هذا هو الآخر لا يقل عن درغوت جشعاً وهيمنة وارتشاء ، واستطاع درغوت وهو حرّ من كل مسؤولية تجاه الباب العالي ومن أية رقابة فرنسية أن يوسع غاراته ويحاول ضرب وهران وغيرها من الممتلكات الأسبانية في أفريقيا .

15

بعد إبرام معاهدة كاتوكامبرسيس وابعاد فرانساً عن التحالف مع الأتراك اقتنع فيليب الثاني بعد أن ضمن لنفسه السيادة على إيطاليا ، بضرورة ضرب القوة البحرية لسيد طرابلس وتسخير قواته وقوات حلفائه لاعادة احتلال تلك القاعدة البحرية العظيمة . وربما دبر هذا المخطط العسكري المعلم الأعظم في مالطة كما ذكر مؤرخو المنظمة ، لكن الصحيح أن التعليمات صدرت من مدريد وأن منظمة مالطة قامت بدور ثانوي صغير . تألفت الحملة في الغالب من قوات ايطالية كما ينبن من الجدول التالى المستقى من تقارير رسمية .

١٦ شينيا — لجان أندريا دوريا وهو حفيد ووريث أندريا في تلزيم الشواني وفي قيادة الأسطول بالرغم من صغر سنه .

٥ شواني — من مملكة نابولى وأثنان ملك خاص لاجد الرجال من نابولى .

٨ شواني — من مملكة صقلية وأثنان ملك خاص لاجد الصقليين .

٤ شواني — من الدوق كوسيو من عائلة سيديتشى .

٣ شواني — من البابا ييوس الرابع .

١١ شينيا — من الأملاك الخاصة لجنويين كانوا في خدمة أسبانيا .

٥ شواني — من منظمة مالطة .

بلغ عدد القوات البرية التى أبحرت ١٢ ألف جندي نصفهم تقريباً إيطاليون من نابولى وصقلية ولبارديا وطوسكانة ، أما الآخرون فمن الأسبان والألمان .

وأسندت قيادة القوات البرية إلى دوق مدينة تشلى نائب ملك صقلية أما القيادة البحرية فكانت من اختصاص جان أندريا دوريا . وظل هدف هذه الحملة طرابلس ، وفي روما وزعت النشرات التى تمثل احتلال المدينة بواسطة الأسطول المميز بالاعلام وممثلين من سرايا الانزال ، وقد خيل إليهم أن النصر محتم لاجدال فيه .

ولكن الآمال التي ملأت الأنفس قد باءت بالفشل ، إذ أن درغوت ، وقد ألقى القبض على سفينة مالطية قد علم منها بالاعداد للحرب فأعلم استانبول بالأمر وطلب منها النجدة . ووصلت تلك النجدة في الوقت المناسب إذ أن الأمراض والخلافات والرياح المعاكسة فرضت على الحملة المسيحية التوقف أكثر من المتوقع في مسينا وفي مالطة وبعد ذلك في القناة بين جزيرة جربة والأرض الثابتة عندما توقف الأسطول للتزود بالماء وحدث أن جرى هناك أول صدام مع العرب (جرت المعركة بقلعة الجزيرة والمسماة القليعة) وكانت النتيجة سيئة جداً بالنسبة للمسيحيين .

نزل أفراد الحملة بقضهم وقضيضهم في الجزيرة بدلا من متابعة السفر إلى طرابلس لأسباب عديدة وجرت مناوشات دامية واستطاعت الحملة احتلال القليعة وقام رجالها فوراً بالعمل على زيادة التحصينات ، لكن عندما وصل الخبر أن الأسطول التركي بقيادة بيالة باشا قد أقلع من ميناء نوارينو متجهاً إلى طرابلس ظهر في صفوف المسيحيين الشغب والهرج والمرج .

وبالرغم من أن الفرق بين القوات البحرية المسيحية والتركية لم يكن كبيراً إلا أن الشهرة غير المستحقة في أن التركي لا يقهر والتي جاءت ، كما سبق أن رأينا ، بسبب مناورة بريفسيا المشؤومة فلم يفكر أى واحد في المواجهة والمبارزة ، وقرر الجميع دون تردد ترك الحملة والعودة إلى صقلية ، وأراد نائب الملك تأجيل الاقلاع حتى يتم صعود كل المشاة إلى السفن ، أما جان اندريا دوريا الشاب فقد نصح بالسفر فوراً وترك الجنود بالجزيرة وفي هذا الوقت ظهر الأسطول التركي فحدث على الاثر هروب رهيب يبعث على الاشمئزاز إلى السفن المسيحية وقطعت الحبال وترك الجنود بالبر وألقى بالخيول في البحر ، ورمت بعض السفن بمدافعها في المياه لتكون أقل حملاً وأسرع في تلمس طريق النجاة ووقع أغلبهم في يد العدو دون قتال أو حتى إطلاق رصاصة واحدة وألقى آخرون بأنفسهم على الشاطئ .

المنظر منظر الرعب الجنوني وحسب ما قاله بيتر وماكيافيلي 'ابن' ذلك المؤرخ الكبير ومفوض دولة طوسكانة في تلك الحملة في تقريره : لا لقد ملأ الخوف كل النفوس واقترفت جرائم أنانية وحشية ، ولم يصدر أى أمر ولم يفكر أحد في اتباعه وتحطم كل انضباط .

استولى العدو على ١٩ شينيا وكثيراً من المراكب الشراعية أما غيرها التي نجت فقد انطلقت توزع الرعب في كل موافيء ايطاليا .

كانت تلك الهزيمة فادحة : اضطرت حامية الجزيرة التي تركت لشأنها الاستسلام بعد مقاومة عنيفة ومعركة يائسة ، وبقي درغوت سيداً على الجزيرة يجوب البحر المتوسط لاتطول إليه يد يوزع الرعب في كل مكان . أما السواحل الايطالية فأُنبرت في سرعة تبني الأبراج للدفاع ضد الغارات ولا يزال بعضها باق إلى اليوم يشهد بالخوف الذي زرعه سيد طرابلس . (١)

ولكن كان لتلك الهزيمة أثر ايجابي إذ أعطى فيليب الثاني وبعض أمراء ايطاليا دفعا قوياً لاعادة بناء الأسطول من أجل الدفاع ضد الطرابلسيين .

ونوقش مخطط لاعادة الاستيلاء على طرابلس ، أو ربما نوقش التقرير الذي وضعه أحد الأساقفة الذي وقع أسيراً عند درغوت ثم جرى افتداؤه سنة ١٥٦١ والذي ذكر فيه أوضاع المدينة وحالة التحصينات التي وضعها درغوت وأكملها ، وقوة الحامية وعدد المدافع ، وأفاد بأنه يمكن الاستيلاء على تلك المدينة بـ ٦٠ شينيا و ١٠ مراكب و ١٠ آلاف جندي . وهذه الوثيقة الموجودة بمكتبة الفاتيكان والتي نشرها فراكتوى تشير إلى تفصيلات دقيقة هامة جداً لمعرفة أحوال طرابلس ، ولم يتبين أن الاقتراح قد وجد قبولا فالنكبة لا تزال قريبة العهد وأعمال بناء الأسطول لم تتقدم كثيراً .

وبقي درغوت لبعض الوقت السيد الفعلي للبحر المتوسط الغربي فإن السفن الحربية والتجارية كثيراً جداً ، وعند الهجوم على المرسى الكبير قرب وهران تحمل خسائر فادحة ومع ذلك فان ثروته ظلت واسعة .

اقترح المعلم الأعظم لمنظمة مالطة لافاليت انشاء أسطول جماعي للاستيلاء على طرابلس مرة أخرى منتهزاً فرصة غياب درغوت عنها غياباً وقتياً ، ولكن زوبعة هبت فشنت القوات القليلة التي جمعت وبذلك تم التنازل عن الحملة ، فكان ذلك فحافزاً لحمل السلطان على ارسال قوة بحرية لاحتلال مالطة واشترك هو نفسه بثلاثين قطعة بين

(١) يقول الاب برنيا في كتابه طرابلس من سنة ١٥١٠ الى ١٨٥٠ ، أن جان اندريا دوريا واجه العذر بحرا وفي هذه العبارة تلطيف لواقع محزن ، وماكيا فيلي يقول باختصار أن نتيجة هذه الحملة هي هزيمة بحرية لا مثيل لها ، لم يرق فيا قطرة دم واحدة وعمت فوضى في الحملة لم ير أكبر منها في أية حملة أخرى . (المؤلف)

شبنى و غليون طرابلس في عمليات الحصار الذى ادارهُ هو بنفسه ، وقد تميز رجاله بالبطولة والشهامة في الهجمات المتكررة على قلعة سانت تلمو ، وقادهم هو نفسه أكثر من مرة في الانقضااض والهجوم فأبلوا البلاء الحسن ولكنه شُهِد في يوم ١٨ يونية ١٥٦٥ وهو يسقط ميتاً بشظية صخرية .

16

لقد تألم الأتراك كثيراً لوفاة درغوت ولم يجد المسيحيون في وفاته فائدة فقد دعى لمنصب الولاية من بعده ولقيادة الأسطول القرصنى قلع على ، ويرجع بأصله إلى كالابريا (جنوب إيطاليا وهو أيضاً مرتد عن المسيحية . كان قلع على تابعاً لدرغوت وصار ذائع الصيت لشجاعته وجبروته وقسوة غاراته .

ومرت مع قلع على فترة من النشاط في البحرية الطرابلسية ورقى بعد قليل في الدرجة والسلطة وأسندت إليه ولاية الجزائر وحمل إلى طرابلس كما حمل من بعد إلى الجزائر فائضاً من الغنائم وملاً سجون طرابلس كما ملاً سجون الجزائر من بعد بالأسرى وأخرج من مراكز عمله في البلدين أبطالا من البحارة جددوا الرعب في شواطئنا مثلما كان سائداً في العهد العربي .

واستمرت التحية التي تقال للمسافر بجرأ « نجاك الله من الشواني الطرابلسية » وبقيت التحية حتى عندما اكتسب شهرة في تونس وبنزرت والجزائر مرتدون آخرون مثل تشيكالا والأسطى مراد والرائس مامى .

أعادت معركة لبيانفو التوازن إلى البحر المتوسط ، وقد اندلعت بعد احدى عشرة سنة من الهزيمة بجربة بفضل دخول البندقية إلى المعركة هذه المرة وبعد خمس وثلاثين سنة من الحياذ ، وأعادت هذه المعركة الجراً والصلابة للبحارة المسيحيين ولكنها لم تستطع أن تضع حداً لقرصنة بلدان شمال أفريقيا بسبب الخلاف الذى دب بين المنتصرين ، وساهم الطرابلسيون في تلك المعركة وخسروا مئآت من الموتي وكان جعفر آغا يقود القوات الطرابلسية ، كما اشترك الطرابلسيون بالسفن في الحملة لطرد الأسبان من تونس سنة ١٥٧٤ واتجه الباشا برأ على رأس جيش صغير لمساعدة الأتراك الذين يقودهم سنان باشا .

ومع قليل من الاستثناءات فإن حملات القرصنة للامارات الافريقية متداخلة وليس من السهل التمييز بين ما قام به الجزائريون من ذلك الذي تم على أيدي التونسيين والطرابلسيين

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر مثلما كان في العصر الوسيط فإن المؤرخين كانوا يطلقون الاسهم العام : الكفار أو الأفارقة أو المغاربة للإشارة إلى مهاجمي سواحلنا وناهي سفتنا وقليل ما يحدث التمييز وخاصة بين التونسيين والطرابلسيين ، لقد وهنت القوة البحرية لهذه البلاد وبالتالي ضعفت القرصنة بسبب الخلافات المدنية والحروب مع سكان الدواخل وجزيرة جربة تلك الحروب التي فرقت طرابلس بعد استدعاء جعفر آغا سنة ١٥٨١ وفي السنوات العشرين الأخيرة من القرن السادس عشر (١) .

نعم لقد وهنت القرصنة ولكنها لم تنطفئ ، وبقاء ذكريات كثيرة لأسرى مسيحيين في طرابلس هو ولا شك ثمرة استيلاء وغارات ، وعلينا أن نفرض أنه من طرابلس ومن برقة بعد ضمت أخيراً ما زالت تخرج حملات قرصنة إذا ما وجدنا أن سرية صغيرة من فرسان القديس اصطفان قد توجهت إليها وبالتدقيق توجهت إلى طلميشة وكان يقودها أمير البحر مونتاتوتو . وقد نزل إلى البر للقبض على أسرى وربما جاء للانتقام (١٥٩٥) .

وبخصوص هذه الحملات الدورية التي يقوم بها فرسان مالطة أو فرسان القديس اصطفان (وهذا تنظيم فرسان بحري أنشأه كوزيمو الأول دوق توسكانة) أو شواني أمير توسكانة من المفيد أن نقول بوضوح أن هذه الحملات إذا أفادت من جهة في الحد من تسلط المغاربة فأنها من جهة أخرى بالانقضااض المفاجيء على المدن والضواحي البحرية وايقاد الحرائق والتدمير والنهب والعنف والاستيلاء على السكان من الجنسين كل ذلك قد أوقد نار الانتقام الوحشي وحرك أسباب الثأر وكان دافعاً مباشراً في الحروب المتجددة بين الأتراك والبندقية .

(١) يقول الكاتب أن جعفر آغا كان واليا وقائدا على طرابلس وأنه سار برا الى تونس - لنجدة سنان ، ويقول صاحب " البرق اليماني في الفتح العثماني " تأليف محمد بن احمد النهر والى المكسي طبعة ١٩٦٧ صحيفة ٤٥٨ وما بعدها - أن القائد كان دلو مصطفى باشا وقد صا د ف في طريقه السلطان احمد بن حسن الحفصى في زهاء اربعة آلاف مقاتل ، فأغار عليهم الباشا وقتل السلطان الحفصى .
اما قلج على فكان في هذا الوقت وفي هذه المعركة هو القبودان - قائد الاسطول . (المغرب)

17

هناك وثيقة غريبة وجدت قبل وقت في الجزائر ونشرت في سنة ١٩٢٥ على صفحات مجلة المجلة الافريقية (Revue Africaine) وتحدثنا هذه الوثيقة أن انظمتنا الفرسانية البحرية كانت تجرى من وقت لآخر استكشافات للسواحل الافريقية للتعرف على الأماكن التي لا تستوفي وسائل الدفاع والمفتوحة إلى مراكبنا وحيث يحتمل وجود قليل من الرقابة وذلك من أجل توجيه الحملات إليها لا للاحتلال بل للنهب والسلب .

الواضح أن هذه المغامرات التي تقوم بها قوات ضعيفة لا يمكن أن تعود بنتيجة سوى ادامة الحرب الصغيرة واستشارة المغاربة والأتراك للعمل بالمثل .

وكتب التقرير عن احدى هذه الاستكشافات أثنان من فرسان مالطة وهما من الايطاليين : لانفريدوتشي ويوسيو ويتعلق بالساحل من دمياط (مصر) إلى شرشال (الجزائر) وذكر بالاضافة إلى مصر وتونس والجزائر كل السواحل البرقاوية والطرابلسية وأشار التقرير إلى الأماكن التي يمكن أن تزود فيها المراكب بالماء والجهات التي يحتمل وجود بعض الفرسان العرب فيها ، ويقول أن بعضهم مستعد لمساعدة المسيحيين بسبب العداوة مع الأتراك ، ومن الصعب التعرف على كل الأماكن إذ أن الفرسان يشوهون الاسماء فيقولون مثلا سالون - سلوم ، وبوكيرى - أبو قير ، وترا بوكو - طبرق أو يذكرون قرى أو تجمعات سكنية اختفت اليوم ، وعلى أية حال فمن مجموع تلك المعلومات يمكن استنتاج معلومات ثمينة عن أحوال دواخل البلاد ودفاعاتها ومواردها .

وبالنسبة لطرابلس فقد أشير إلى مصراته ، وبورتو ماقرو (الخمس) وتيسورا (تاجوراء) وزيليت (زليطن) كأماكن صالحة للتزول أما جتور والزاوية وزوارة فأماكن غير مأمونة وفضل المؤلفان ميناء سوسة بيرقة وميناء الدقيق في تونس وميناء القل بالجزائر .

ووصفت التحصينات بمدينة طرابلس وعدد قطع المدفعية وعينت الحاميات وذكر المؤلفان أنه يلزم للاستيلاء عليها مائة شئى ومائة مركب عليها ٢٠ ألف رجل للانزال بالمدينة ولكن ذكر أيضاً مخططاً للمدعو المعلم داود الذى يقترح للاستيلاء عليها اعداد ٢٠ شينيا فقط و ١٠ فرقاطات و ١٥٠٠ رجل .

كم كان عدد الحملات التى نظمت فعلا ضد طرابلس : باستعراض ماني الذاكرة وما خطه تاريخ الحملات التى قام بها فرسان مالطة وفرسان القديس اصطفان ويتصفح الحوليات الطرابلسية وما كتبه الأب برنيا فأئنا لانجد أخبار انزال مسيحي في طرابلس في حين أنه يتكرر ذكر مثل تلك الحملات على تونس والجزائر وبدون التحدث عن الحملة الكبيرة على الجزائر التى أمر بها فيليب الثالث سنة ١٦٠١ والتى جمعت لها شوان من البابا وأمير طوسكانة ومالطة وسافويا وصقلية ونابولى ومن المرتقة الجنوبيين وباءت بالفشل وكلفت قائدها جان أندريا دوريا العزل من منصبه فأن الأمير فرديناند الأول كان يفضل الهجوم على سواحل سورية وشبه جزيرة المورة والجزائر وأن فرسان مالطة كانوا يفضلون مهاجمة السواحل التونسية وإلى غير ذلك من التفضيل . ونذكر حرق الأسطول الجزائرى الذى قام به بحارة طوسكانة سنة ١٦٠٤ مباغته ونذكر كذلك الهجوم على بريفيا سنة ١٦٠٥ والتزول على سواحل ايطاليا في نفس هذه السنة والحملة المشؤومة التى قام بها المالطيون على المحمدية (في خليج تونس) وحملة طوسكانة لاياس سنة ١٦٠٦ وهكذا بالتوالى دون أن نعثر على ما يذكر حملة على طرابلس وخاصة في الحقب الأولى من القرن السابع عشر .

وأقرب غارة إلى طرابلس كانت تلك التى استهدفت جزيرة قرقة سنة ١٦١١ وقد قام بها نائب الملك بصقلية وشارك دوريا وكان قد رفض فرسان منظمة القديس اصطفيا المشاركة فيها .

ويمكن أن نستنتج من ذلك أن القرصنة الطرابلسية التى كانت تثير الرعب في أيام درغوت وقلج على قد انتهت إلا أن هذا الافتراض تكذبه ما لدينا من معلومات دقيقة حول استمرار القرصنة دون توقف وعندما صارت سلطة الباشوات الأتراك في طرابلس سلطة اسمية أو دون ذلك وتحول الحق في ممارسة السلطة إلى الديوان أو مجلس الضباط

واحتفظ هذا المجلس بصلاحيه تنظيم القرصنة ، ومعلوم أن هنرى الرابع ملك فرنسا وكان دائماً صديقاً للأتراك كما كان سلفه ، حصل لرعاياه على الحصانة في الايلات الثلاث وأطلق سراح الفرنسيين الذين كانوا أسرى ولم يكن عددهم قليلاً .

١١٤ ويجب أن لا يهمل الخبر الذى يفيد أنه خلال عهد سليم الذى تقلد الباشوية من سنة ١٦٠٦ إلى سنة ١٦١١ كان ميناء طرابلس يعج بالمراكب التجارية من طوسكانة وجنوة والبندقية ومالطا خلافاً للموانيء الافريقية الأخرى وهذا يجعلنا نقدر أن طرابلس عقدت مع بعض الدول الايطالية على أقل تقدير وبواسطة اتفاقات خاصة وجوازات مرور علاقات صداقة وأوقفت من أجل ذلك حرب القرصنة //

وإذا ما وجدت هذه الاتفاقات كانت لأجل قصير^١ ، إذ أن الحرب مع قبائل الدواخل التى ظلت مستمرة تقريباً أوقفت التبادل التجارى مع فزان والمنطقة الاستوائية وحرمت بذلك المراكب المسيحية من التزود بانتظام بالسلع الثمينة مثل العاج وريش النعام والتبر^٢ ومن جهة أخرى فإن السكان الذين يعيشون على البحر وقد تعودوا على حياة النهب كانوا يضغطون لاستئناف القرصنة التى صارت المصدر الوحيد للربح . ولا يستبعد أن الهجرة التى فرضت على الموريسكيين (١) الذين انتشروا في شمال أفريقيا قد ساهمت في دفع القرصنة من جديد إلى الأمام .

لقد جرى هذا بالضبط عندما تقلد سليمان المسمى صفر لقب داي (باى) ونعرف عن هذا الأخير أنه بنى حماماً (٢) كبيراً للأسرى المسيحيين .

(١) مسلموا أسبانيا . - (المغرب)

(٢) - الحمام هنا يعنى السجن الذى يكس فيه الاسرى زوسى بالحمام لانه خال من نوافذ ولا يدخل اليه الهواء ولا النور مثل الحمامات التركية ، والمعروف من هذه الحمامات هو الموجود حتى اليوم تحت ميدان الكنيسة القديمة قرب باب البحر . (المغرب)

18

وفي هذا العهد أى في العقدین الأولین من القرن السابع عشر ظهرت شخصية سيئة السمعة تتمثل في ماسى رائس وهو أيضاً مرتد عن المسيحية ، وقد أعاد الرعب من جديد إلى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت سلسلة من المعارك مع سفن طوسكانة والسفن البابوية ومنظمة فرسان مالطة ، وهو الذى أدخل استعمال السفن المستديرة على بحرية القرصنة الطرابلسية عوضاً عن الغليونات .

وخلال حكم مصطفى شريف (شريف داي) الذى ابتدأ عهده على الراجح في سنة ١٦٢٠ ، نظمت الدول الايطالية باشراف فيليبرتودى سافويا حملة جماعية لتطهير البحار من القراصنة وانضمت إلى هذه الحملة شوان بابوية وأخرى لأمر نابولى وصقلية وجنوة ومالطة وقسمت إلى ثلاثة أسراب جابت بحر ترينو والسواحل الافريقية طولا وعرضاً وليس هناك مايدل على أنها حققت نتائج هامة (١٦٢٣) .

وفي السنة التالية التقى فرسان من منظمة القديس اصطفان تابعين لبحرية البابا بمراكب قرصنة وجرى قتال كانت فيه الحظ مع المسيحيين ، وتبين بعد ذلك أن المراكب ليست لممامى رائس بل لحسن آغا وهو قرصان جزائرى رهيب ، وقد استطاع بحيلة شيطانية أن ينجو من القبض عليه بحرق سفينته .

في سنة ٦٣١ اعتلى سدة الحكم في طرابلس محمد الساقزلى وهو أيضاً مرتد عن المسيحية واشتهر قبل ذلك كقرصان لدى الجزائريين وقد خرج عدة مرات منتصراً وتم له الاستيلاء على سفن وبحارة ايطاليين ، ويمكن أن نفهم من ذلك أنه أعطى دفعاً قوياً لحركة القرصنة مزوداً سلطان القسطنطينية بعدد وافر من الأرقاء والإماء .

وتقابلت سفن محمد الساقزلى في كثير من المرات مع سفننا وقبضت مراكبه على سفينة لدوق سوفايا ونهب جزيرة كورسيكا وغنمت سفناً من طوسكانة ونابولى وصقلية ،

واستولى أمير البحر لفرسان القديس اصطفان ورازانمو على سفينة لطرابلس سنة ١٦٣٤ في مياه كورسيكا ، وفي هذه السنة نفسها استطاع أسطول صغير تابع لفرسان مالطة أن يقبض على ثلاثة مراكب مشحونة بالأسرى ، ولما كان محمد الساقزلى هو نفسه حديث العهد بالاسلام فقد أحاط نفسه بمرندين على المسيحية وأسند إليهم قيادة سفنه القرصنية العديدة ، وتميز من بينهم هولندى هو مراد الفلمنكى ، ومن المعلوم أن هؤلاء المغيرين المغامرين لم يكتفوا بتدمير الأراضي الايطالية بل انطلقوا حتى سواحل بروفانس ، الأمر الذى أثار فرنسا فتحركت تجوب البحار حتى ألقت القبض على مراد ، وبالنسبة لفرنسا ومنذ عهد مصطفى شريف فان الكاردينال زريشيليو ، اتباعاً للسياسة الفرنسية التقليدية التى تميزت بصداقتها لتركيا ، استطاع بواسطة سلطان القسطنطينية أن يربط علاقات صداقة متينة مع طرابلس وأن يطلق سراح جميع الأسرى الفرنسيين وأن يؤسس قنصلية فرنسية مثل القنصلية بتونس التى كان لها أهمية سياسية كبيرة سنة (١٦٣٨) .

وبعد الاستيلاء المؤقت على بنغازى وبناء قلعة في تلك الجهة فقد ازدادت القواعد القرصنية والطرابلسية التى لم تجد من يصدّها ولم يتردد القراصنة الطرابلسيون من مهاجمة حتى القوافل الهولندية والانجليزية التى بدأت منذ وقت تجوب البحر الأبيض المتوسط وهم أشد اثاراً للرعب من الجزائريين والبتريتين .

وعندما اندلعت حرب كريت حول محمد الساقزلى في السنوات الأولى سفنه الحربية نجدة للأتراك كما يمليه عليه واجب التبعية ، وفي الوقت نفسه كانت المراكب السطرابلسية تجوب بحر ترينو مهددة مواصلات البندقية مع كريت .

وفي سنة ١٦٥٢ قبضت السفن البابوية على فست لطرابلس بعد موت محمد مسموماً بثلاث سنوات ، وجاء بعده مرتد آخر وقرصان مهاب ذلك هو عثمان من أصل يوناني كسابقه (١) وقد ساهم كذلك في حرب كريت بسفنه وجرت له مصادمات عديدة مع البنادقة وحلفائهم (معركة الدردنيل سنة ١٦٥٧) بالإضافة إلى فرسان القديس اصطفان الذين رأوا أن أسطولهم الصغير قد نقص عدداً بسبب بيع الشواني إلى الكردينال ما زاران .

(١) الساقزلى - نسبة الى ساقز وهى إحدى جزر أرخبيل اليونان وعثمان هذا هو صاحب مدرسة عثمان باشا الواقعة قرب جامع درغوت باشا .
(المغرب)

وهذا النقصان وضعف الأسطول البابوي والحرب الدائرة بين أسبانيا وفرنسا في البحر وحتى في إيطاليا وإلى معاهدة السلام التي عقدت في البيرنيه ، هذه الأمور مجتمعة تركت القرصنة الطرابلسية دون أى من كايح .

على أن نقصان القوات الإيطالية أدى إلى تدخل القوات الأجنبية ولكنها اقتصررت في أنانية على حماية رعاياها . ومن المناسب أن نذكر هنا وبسرعة أن أول دولة استطاعت أن تفرض كايحاً على الطرابلسيون كانت إنجلترا . فبعد أن أحرق أمير البحر بليك ميناء الدقبقي في تونس وأحرق كذلك بعض المراكب التونسية تقدم إلى طرابلس سنة ١٦٥٤ مهديداً ونجح في الحصول على الموافقة بسحب الأسطول القرصني إلى الخوض الجاف وبعد أربع سنوات عاد الانجليز أكثر تهديداً ويبدو أن القنصلية الانجليزية في طرابلس فتحت نتيجة لهذا التهديد .

وفيما بعد سنة (١٦٦٠) جاء أميرال فرنسي وبعده الأميرال الهولندي روبرت ولكن عملهما اقتصر على أفنداء الأسرى من جنسيتيهما وفي ١٦٦٢ عقد اتفاق مع الانجليز ، وفي سنة ١٩٦٥ وفي أخطر أوقات حرب كريت استولى الطرابلسيون بأسطول يتكون بأسطول يتكون من أربع قطع على سفينة بندقية محملة بالحنود عند الطرف الجنوبي لشبه جزيرة المورة بعد قتال بطولي مات فيه القائد البندقي موشينيقو . وتقول المصادر العربية أن عدد الأسرى كان كبيراً جداً حتى صار من الضروري بناء حمام جديد وكانت البندقية في هذا الوقت منهمكة في حرب كريت فلم تقدر على الثأر لهذه الهزيمة بل اكتفت بأفنداء الأسرى فيما بعد .

ان جبروت وكبرياء عثمان كان فوق الوصف ، حتى أنه رفض تسليم الأسرى الفرنسيين إلى أميرال أوفده إليه لويس الرابع عشر (١٦٧١) بل للرد على التهديد أرسل المرتد الفرنسي يرم لضرب سواحل كالابريا واقتناص الغنائم ، وعاد بعدد وافر عنهم .

لقد كانت طرابلس إذن تعج بالأسرى ، وسقطت حكومة عثمان على اثر انتفاضة لبعض البحارة ممن كان يتململ بسبب قلة الأجور وكان على رأسها مرتدون كذلك ، وجاءت الانتفاضة بمرتد آخر هو الآخر من البحارة لكن سلطته دامت ساعات قليلة . وفي هذه الفوضى الضاربة استطاع عدد كبير من الأسرى الإفلات ذكر منهم أسماء

من فرسان مالطة ، وقد ساعدتهم على الهرب مرتد آخر يسمى رجب وأسمه الحقيقي هو ج. ب فرارى وهو من بيد مونت وكان رجب هذا يتمتع بتقدير كبير لشجاعته واقدامه .

إلا أن اذهار القرصنة الطرابلسية قد أصيب بضربة خطيرة سنة ١٦٧٥ عندما جاء الأميرال نريورو وسد الميناء على أثر القبض على ثلاث سفن انجليزية ، وقصف نريورو القلاع وأحرق بعض غلايين القرصنة وألزم إبراهيم داي على أثر حملة ليلية من بعض سفنه على تحرير جميع الأسرى الانجليز وكثير من الفرنسيين وكان بينهم طبيب هو المصدر الرئيسى للمعلومات عن هذه الفترة الهامة من التاريخ (١٦٧٦) .

وبدأ كأن القرصنة قد انطفأت لكن (الرياس) أو مقدمى السفن الذين حرّمهم تدمير السفن من مكاسبهم المعتادة دب بينهم الهرج والمرج واشتد الغليان حتى أضطر مصطفى داي وهو ما يزال جديداً في منصبه إلى بناء سفن جديدة لاستئناف القرصنة التي سبق له أن احترفها .

استؤنفت الغارات على سواحل ايطاليا وقبض على سفن أخرى وتدفق جديد من الأسرى ، وتميز في هذه المعارك البحرية أحد المرتدين هو حسن كابودان وأصله من كالابريا وكانت اماؤه من المسيحيات الحميلات اللاتي قبض عليهن هو نفسه قد ذكرها المؤرخون المحليون بأعجاب وحسد . اسم حسين كان يبعث الرعب في الحوض الغربي من المتوسط ، والأساطيل الايطالية تجر على الخروج من موانئها ، فما كان من لويس الرابع عشر إلا أن يأمر الأميرال دى كسينى بأن يفرض نزع السلاح على الطرابلسيين وأن يعمل على تحرير عدد كبير من الأرقاء الفرنسيين (هذا القائد هو نفسه الذى ارتبط اسمه بقصف جائر لمدينة جنوة) .

لقد أشرب دى كسينى كثيراً من الخدع ومع ذلك لم يتوان عن تتبع القراصنة وبالرغم من الحماية التركية لهم فقد أحرق في ميناء ساقز بعض من سفنهم التي كان يقودها المرتد محمد . على أن فرنسا لم تسترجع من حكومة طرابلس جميع الأسرى إلا عندما جاء الأميرال ديستري وقصف بالبطاريات العائمة المدينة والقلاع (١٦٧٥) .

ولأول مرة في تاريخ القرصنة تهتم فرنسا بالأسرى المسيحيين من غير الفرنسيين إذ حرر أكثر من ١٢٠٠ شخص أغلبهم من الإيطاليين .

وحسب ما جاء في تقرير لترجمان فرنسي فإن الأسطول الطرابلسي كان يتألف في ذلك الوقت (بعد نكبة ساقز) من عشر سفن على كل واحدة منها ما بين ٤٤ إلى ٢٦ مدفعاً وطاقم يعد بين ٤٥٠ و٢٦٠ رجلاً ويضاف إلى هذا العدد ثلاث غليونات .

كان من المستحيل على الداي والديوان ابقاء كل هؤلاء الأشخاص عاطلين ومنعهم من الخروج للقنص ، ولذا وإذا ما احترمت السفن الفرنسية فقد ابتدأت أعمال القنص ضد رعايا دول أخرى حتى أن القرصان قد صعد إلى منصب رئيس الحكومة وكان عليه أن يحمي رفاقه القدماء .

واهتاج البحارة وقتل حسين ولم تتوقف القرصنة ، إنها مسألة حياة أو موت ، وبالضرورة فإن الحكومة لا تجد سبيلاً غير السماح بها وتشجيعها إذ تعود عليها بعشر الغنيمة وبمال افتداء الأسرى .

وبينما كانت الحكومات الإيطالية تقدم الاحتجاجات وتبحث عبثاً عن مساعدة أرسلت فرنسا مرة أخرى إلى طرابلس لحماية رعاياها وقنصلها المسجون أسطولا قوياً قصف المدينة والقلاع دون ما فائدة سنة (١٦٩٢) ، وبعد ذلك ، استطاعت بواسطة مفاوضات بارع أن تسترد بعض الغنائم التي أخذت منذ وقت قريب وأن تسترد بعض الأسرى ..

ومن المفيد أن نذكر أن فرنسا حصلت في تلك المناسبة على رخصة الاستحواذ على أعمدة رخامية وتيجانها وبعض الممرر والتماثيل من مدينة لبدة الأثرية والاذن بنقلها إلى الخارج .

لم تتوقف القرصنة وربما توقفت لبعض الوقت ما اشتد الخلاف بين الجزائريين والطرابلسيين من جهة والتونسيين من جهة أخرى وساد بين قطاع الطرق البحرية هؤلاء تمزق واضح ، وتوقفت مرة ثانية في وقت آخر عندما شن التونسيون والطرابلسيون الغارة على مدينة الجزائر (١٧٠٠) وعندما نصب على رأس الاسطول إبراهيم خوجة

(كان أسيراً يعمل على إحدى شواني صقلية) فقد تولى هذا قيادة سفنه بنفسه ضد السواحل الصقلية وهو ممتلئ بغضاً لساتته السابقين .

على أن الانتفاضات المتكررة التي جاءت بالعديد من الدايات إلى السلطة في بداية القرن الثامن عشر ، وفي فترات متقاربة جداً ، لم يكن لها على ما يبدو أثر على حرب القرصنة خاصة وأن حالة الحرب المستمرة في المتوسط (حرب وراثة العرش في أسبانيا) جعلت السواحل الإيطالية تتمتع برقابة أفضل وقل القبض على السفن ، ويقول شهود معاصرون ان البؤس بين القراصنة الطرابلسيين بلغ أشده .

^١ والبندقية هي الدولة الإيطالية الوحيدة التي حافظت دائماً على علاقات طيبة مع طرابلس وظلت بحريتها التجارية مستثناة من قنص البحارة (فيما عدا حالات قليلة وبسبب ظروف سياسية خاصة) . ويتفق جميع المسافرين وقناصل فرنسا في التأكيد بأن أغلب البضائع الواردة من فزان تنقل إلى أوروبا بواسطة سفن البندقية وبالمثل ترد من البندقية السلع التي تحملها القوافل إلى فزان . ^٢

^٣ ويقوم البنادقة بنوع آخر من التجارة ، تجارة الملح ، وتأتي سفن البندقية وتنشحن الملح من زوارة على مراكب شراعية كبيرة وهناك ما يشير إلى سفن من جنوة ولكن هذه تفضل السواحل التونسية ، وفي جزرها الساحلية ، كما هو معلوم توجد مؤسسات ومصادر ومصائد أعطيت لشركات من جنوة بعقود تأجير دائمة . ^٤

19

في سنة ١٧١١ حدث الانقلاب الكبير الذي جاء بالعائلة القرية مانلية إلى السلطة ويطرد الأتراك وأخذت حرب القرصنة دفعاً جديداً بعد الاستقلال النسبي عن القسطنطينية ، ويفضل الجعل المستلم من هولندا وجنوة للحصول على تجديد لاتفاقات التجارة ومنح اجازات المرور استطاع أحمد أول القرمانيين ان يعيد بناء الأسطول (١) بعد أن أصيب بالدمار وأهداه السلطان سفينتين إحداهما ملك للبندقية . وبعد ذلك بقليل بدأت تظهر أخبار القبض على سفن أخرى وأسرى آخرين ، ويبدو أن أحد الجنوين وأسمه ترافيرسو كان له نصيب في اقتسام الغنائم ، وترافيرسو هذا هو وكيل شركة ملاحات تاجوراء وقد منحه أحمد الامتياز قبل ذلك بقليل .

ومرة أخرى تتدخل فرنسا لحماية مواطنيها المقبوض عليهم والمعتدين وحضرت أساطيلها أمام طرابلس مهددة مرات ومرات ، وفي سنة ١٧٢٨ ألقى قائد السرية البحرية قرانيري أكثر من ١٨٠٠ قنبلة على المدينة بعد أن فشلت جميع محاولات التوفيق لكنه لم ينجح في تجديد الاتفاقات ولم تم الموافقة على التجديد إلا في السنة التالية .

١١ وفي سنة ١٧٢٦ ، بعد أن أضحت "النمسا" سيدة على نابولي وصقلية "عقدت اتفاقاً لا مع طرابلس بل مع سلطان القسطنطينية ، وبموجبه يتمتع جميع رعايا الامراطور ورعايا دولة بلجيكا والدول الايطالية بما في ذلك طوسكانة بحصانة سفنهم وبضائعهم ورجالهم ويمنع القبض عليهم من قبل قرصان أيلات الشمال الافريقي " ، وقبل القره مانلي هذا الاتفاق ومنذ هذا الوقت بات ممكناً لجزء كبير من ايطاليا أن تتمتع بالسلام مع الطوابلسيين وأسست على أثر ذلك قنصلية نمساوية في طرابلس وهي في واقع الأمر قنصلية بصقلية

(١) - في هذا الكتاب تتردد كلمة اسطول وتعني الطائفة من السفن وهي كلمة اعجمية وكلمة عمارة بفتح العين وتعني طائفة من السفن الحربية تكون معا ، والكلمة مولدة - انظر المنجد (المعرب)

ونابولى . وبعد سنوات قليلة ، وبسبب الاستيلاء على سفينة طرابلسية على سواحل كالابريا قطعت العلاقات الطيبة وتفجرت حرب قرصنة بين حكومتى نابولى والقره مانلى ودارت الدائرة على نابولى (في هذا الوقت انتقل الحكم إلى عائلة البوريون بعد حرب الخلافة على الحكم في بولندة) .

وتولى محمد بعد أبيه أحمد لفترة قصيرة (١٧٤٥ - ١٧٥٣) ووجد نفسه مضطراً إلى استئناف حرب القرصنة (هكذا تقول التقارير القنصلية) بسبب الأوضاع المالية البائسة ، لقد سبق أن منع هذه الحروب منعاً قاطعاً لكنه قد أجبر في إحدى جلسات الديوان على استئناف الحرب في البحار ضد المسيحيين وأوقعت السفن الطرابلسية خسائر شديدة بسفن صقلية ونابولى (بدأت طرابلس تستعمل سفناً من نوع الشباك الخفيفة) ، أما أما قنصل نابولى الذى يعمل بطرابلس تنفيذاً لحكم اتفاق سنة ١٧٢٦ فقد التجأ لدى القنصل الفرنسى الذى تولى تسفيره سالماً إلى صقلية .

لقد منع محمد القراصنة من مضايقة السفن الانجليزية والفرنسية وكان يخشى عماراتها ، إلا أن بعض هؤلاء القراصنة لم يحترموا الأوامر ، فجاءت فرنسا كما جاءت انجلترا وقامت كل منهما باستعراض بحرى وأمكنهما استرجاع الغنائم والحصول على التعويض عن الخسائر ووعود بالنسبة للمستقبل . أما حكومة نابولى فلم تستطع أن تعمل شيئاً لنقص في السفن واضطرت إلى تحمل الاعتداء في صمت .

وطبقاً لما تقوله تقارير قناصل فرنسا فإن عمارة القرصنة الطرابلسية في هذا الوقت تتألف من الشباك وليست من الشواني ^{سكنى} كما كانت من قبل ، وعددها عشرة ، يضاف إليها فرقاطتان بكل واحدة ٢٦ مدفعاً ، هذا إلى جانب اثنين من الشواني . وواضح أن بحرية العدو قد أذنت بالغروب الكامل ، ونتيجة للتهديد الفرنسى والانجليزى انتفض البحارة بسبب القيود المفروضة على القرصنة وأخذت هذه الانتفاضة بالدم .

أما على القره مانلى الذى حكم من سنة ١٧٥٤ إلى ١٧٩٥ ، فقد اضطر في البداية ، لتمكين حكمه إلى الخضوع لمطالب البحارة واستئناف حرب القرصنة واطلاق يد المرتدين المستبدين ، وفي هذا الوقت حتى نابولى وقد عادت تمتلك بحرية حربية ، أخذت تفرض احترامها وباتت حرب القرصنة تنتهى في الغالب بخسائر مؤلمة .

لقد تميز في الحرب ضد الطرابلسيين البطل جوسى مرتيتز المعروف في البحرية باسم كبتن بى وهو الذى أعطى للطرابلسيين أكثر من درس قاس . وكما سبق أن حاول ضد طرابلس شارل بوريون فإن فرديناند أو بالأصح الأوصياء على العرش أثناء قصور الملك حاولوا إعادة الحياة إلى رابطة الدول المسيحية مثل الرابطة التى قامت في عهد فيليب الثاني ، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام صعوبات جمة منها ما أثارته حكومة لويس الخامس عشر .

ويجب أن نقول هنا أن فرنسا بدت كأنها تساعد ضمناً الطرابلسيين على القرصنة (والفضل للكتاب الفرنسيين الذى لمسوا ذلك) فالقناصل الفرنسيون كانوا يمنحون رخصاً لمراكب القرصنة ، وبفضل تلك الوثائق كانت تستقبل في الموانئ الفرنسية وتحترم من قبل السفن الحربية الفرنسية وخاصة عندما يعمل القرصان ضد مراكب أعداء فرنسا .

لكن الفوائد التى تدرها القرصنة لم تعد كبيرة على ما قد تبين إذ أن قنصلاً فرنسياً فرنسياً سنة ١٧٦٥ قد أكد أن البحرية أضحت في حالة ترد كامل ونقصت إلى ثلاثة شبابك وغليونين إذ استولى على الباقي فرسان مالطة والبنادقة والفرنسيون .

والواقع أن البنادقة حافظوا دائماً على علاقات طيبة مع طرابلس واهتموا باستغلال ملاحظات أبي كماش ، ومع هذا فقد اشتكوا من بعض غارات القواصنة عليهم في بحر يونيو وبحر الادرياتيک واقتناص بعض سفنهم ، وقدم قنصلهم احتجاجات إلى الداى دون فائدة . ومن أجل ذلك أرسلت عمارة بحرية بقيادة جاكومو ناني البطل ، تتألف من خمس قطع بين فرقاطات (وأغربة) ١ (وتقدمت هذه إلى ميناء طرابلس مهددة . لقد هزأ القنصل الفرنسى ، وهو المصدر الرئيسى لما كتبه فيرو ، عن المراسم التى أحاط بها ناني نفسه عندما تقدم إلى الداى وكان صاحب الحوليات الطرابلسية قد شحذ سنانه ضد المراسم الكرنفالية « بدون أن يتوقف عند نتائج المهمة ، ونسى أن الأبهة التى يحيط بها ممثلو البندقية أنفسهم أمام الأجانب إنما كانت متواضعة أمام ما تبرج به ممثلو الملك لويس الرابع عشر ، الملك الشمسى » .

وليس خارجاً عن الموضوع أن نذكر ان البندقية ، قبل سنوات قليلة (١٧٦٣) ، استطاعت أن تجدد مع طرابلس اتفاق الصداقة وبموجبه يتعهد الداى ان لا يسمح لسفن

القرصنة التابعة له بالخروج في بحر الادرياتيک (ويسمى في العادة خليج البندقية) وأن يأمر مقدمى سفنه بالمرور دائماً بعيداً عن الجزر التابعة للبندقية (وكانت تسمى جزريونية) وان يكونوا بعيدين عنها بما لا يقل عن ثلاثين ميلاً ، ولا بد أن الداي لم يقتصر على أمر مقدمى السفن باحترام السفن التى تحمل علم القديس ماركوس فحسب بل أمرهم بعدم التعرض للبضائع أو المسافرين البنادقة حتى إذا كانوا على سفن أجنبية ، وأيضاً باطلاق سراح رعايا البندقية الذين يلقى القبض عليهم في سفن تحمل أعلام دول أخرى .

وفي مقابل تلك الامتيازات تتعهد البندقية بشراء ٢٥٠ موجد ملح من ملاحات زوارة (١) وتدفع مبلغاً سنوياً قدره ٢٥٠٠ سكوين في مقابل الامتياز وتحترم السفن والتجار البنادقة حتى إذا كانوا بعيداً عن بحر الادرياتيک .

ومجمل القول فإن المبلغ هو جزية مقنعة وليس من السهل الانتباه إلى طبيعته ، وإذا ما كانت كلمة - جزية - تبدو فجأة ، فهى تعويض عن الخسائر التى تتحملها طرابلس بسبب الحد المفروض على القرصنة لصالح رعايا البندقية ، وباختصار فإن البندقية عملت لسبق هولندا ودول أخرى عمله .

لكن انتهاك اتفاق سنة ١٧٦٣ بسبب الشبابك التى دخلت الادرياتيک ، والقبض على واحد منها والاستيلاء على سفينة تفرق علم القديس ماركوس قرب نوارينو كل هذه عكرت صفو العلاقات ، ورفض الداي تقديم أية ترضية وغض النظر عن الاهانة التى لحقت بعلم القديس ماركوس ، مثلما فصل من قبل مع الفرنسيين ولكن ما أن رست الفرقاطات الثلاث والغرابات بقيادة نافي في الميناء حتى هدأت النوايا العدوانية ووعد برد الغنائم والتعويض عن الأضرار وتسليم رعايا البندقية الأسرى وكذلك دفع تعويضاً بسبب الاهانات التى الحقنها لعلم البندقية شرذمة لا اخلاق لها .

وربما كانت هذه الترضية الواسعة التى منحت للبنادقة سبباً في الامتناع الفرنسي الذى أعرب عنه عبر تقارير قنصل الملك لويس الخامس عشر ، ويوجد صدى لهذه الامتناع وجاء بدون ارادة ولاشك ، في الأسطر القليلة التى خصصها مؤلف الحوليات الطرابلسية للحادث (ص ٢٥٩/٢٦٠) .

(١) الموجد هو البوشل الانجليزى الذى يساوى ٨ جالونات أو ٣٢,٥ لتر تقريباً - المغرب .

بين أيدينا التقرير الذى أحاله ناني إلى حكومته بعد عودته من طرابلس ونقرأ فيه أن بحرية الداي في دور انحطاط شديد وأن دار الصناعة تفتقر إلى التجهيزات اللازمة وأن المخازن فارغة والشبابك والغليونات قليلة العدد وفي حالة سيئة وعلاوة على هذه المعلومات قدمت الوثيقة معلومات أخرى ذات طبيعة سياسية :

ان السادة الحقيقيين في الدولة هم بعض المرتدين الذين لا يفتأون عن إثارة الداي على المسيحية ، ربما لخوفهم من اعادتهم إلى حكوماتهم ، وأن الحماية التركية تظهر في شكل غير مباشر ، وإذا ما امتنعت الدول الأوروبية عن المجابهة القوية لحكومة طرابلس الضعيفة فذلك تفادياً للاساءة إلى الباب العالى الذى تحرص جميع الدول على صداقته باستثناء روسيا والنمسا .

وكعلاج أكيد لعنف القراصنة الذى لا يمكن تجنبه ، وهم المستعدون دائماً إلى مخالفة أوامر سيدهم وتحدى التهديد بالعقاب البدني والقتل ولان حرب القرصنة هي مصدر ربحهم الوحيد ، اقترح ناني على حكومته ارسال أسطول قار مسلح تذكر حكومة طرابلس بالخوف الذى أصابهم عندما وجهت سفنه مدافعها على المدينة .

كان ناني رجل سياسة لبق مع براعته كرجل بحر ومنفذ قوى للأوامر ، وبدون أن يذكر اسم فرنسا بوضوح فقد أشار في تقرير إلى سياسة دول أخرى دفعته مصالحها الخاصة والغيرة من بعض الدول أن تمنع القيام بعمل جماعى قوى ضد الايالات المغربية وتجد الوسيلة لاعلام القراصنة بتحركات الأساطيل المسيحية حتى تتفادها .

لكن البندقية لم تتبع عندئذ نصائح مقدم سفنها ، فلا ذكر لمخاطر بحرية قارة ولا تحركات للأسطول ، وفي وقت لاحق كما يذكر الجميع ، استطاعت أن تفرض احترامها وهيبتها لدى الدول المغربية عندما أرسلت انجلو ايمو (١٧٨٦ - ١٧٩٢) مرات عديدة ليجعلها تتقيد باحترام المواثيق المعقودة تحت قصف المدافع .

واقتنعت الايالة المغربية بطرابلس بعد الهزيمة المنكرة التي حلت بأسطول الباب العالي في مياه جيزمة أمام الأسطول الروسي ، بضرورة التزام الحكمة نحو الاوريين ، حتى أنه عندما دعى الداي لارسال سفنه نجدة للاتراك لم يستطع أن يجهز سوى غليونين لم يتوجها إلى البوسفور إلا بعد تمرد البحارة والتهديد والعقاب والتسامح ، فكانوا أكثر استعداداً للقرصنة منهم إلى الحرب .

20

وكالعادة لم تلحق بالداى أية نتائج خطيرة إذ أن الدول التى يهملها الأمر كانت تحميه . واستفاد الداى فيما بعد من الحرب الجديدة التى اندلعت بين الانجليز والفرنسيين (حرب استقلال أمريكا) وكان لها صدى فى البحر الأبيض المتوسط ووفرت هذه الحرب الفرصة للتفاوض والاتفاق مع فرنسا التى وجدت سفنها المسلحة مأوى ومساعدة فى طرابلس .

فرنسا كانت دائماً الحامية الكبيرة للداى والوسيط بينه وبين الدول الأخرى ، وحتى جنوة عندما استولى الطرابلسيون على إحدى سفنها طلبت بشكل غير مباشر الوساطة الفرنسية للحصول على التعويض (١٧٨١) ، وبعد أن تهاوت التجارة الإيطالية وتوقف رسو سفن جنوة وطوسكانة والبندقية فى موانئ طرابلس بعد وفرتها دخلت فرنسا فى كل النشاط التجارى بما فى ذلك حركة النقل بين مصر وسوريا .

وتذكرنا الحوليات الطرابلسية التى كتبت فى أغلب موادها عن التقارير القنصلية وعن هذه الفترة ، بوصول أسطول آخر بقيادة بحار بندقى عظيم إلى طرابلس سنة ١٧٨٤ ذلك هو أنجلو ايمو وتذكرنا أيضاً بما خص به من استقبالات حافلة ، ومن المعروف أن ايمو كان مكلفاً بالحصول على ترصية من حكومة تونس التى كان بينها وبين طرابلس وبصورة مستمرة ما يشبه حالة الحرب ، وكان من البديهي ان يستقبل بحفاوة فى طرابلس وقد لاحظ القنصل الفرنسى الأبهة التى يتباهى بها ايمو وأدوات المائدة النفسية .

وفى تلك المناسبة اتفق على تجديد الاتفاق بين البندقية وطرابلس لاحتكار ملاحات زوارة بزيادة كبيرة فى القيمة النقدية السنوية ، وكان لطوسكانة وهى دولة ايطالية أخرى نشاط تجارى مزدهر حسب ما ذكرته التقارير القنصلية ، أما مدينة ليقورن ذات الميناء الحر فكانت أكبر مركز لتجارة الأصواف .

وبعد النكبة الداخلية في البيت القره مانلى عندما خضعت طرابلس لبعض الوقت لحكم على برغل الجيورجى (ومعروف أن هذا المرتد جاء إلى طرابلس على ظهر سفينة بندقية) قطعت العلاقات مع قناصل الدول المسيحية . ومن حسن الحظ أن هذا الحكم كان قصيراً ، إذ بعد عام ونصف عادت العلاقات الطيبة بعودة القره مانلى إلى السلطة سنة (١٧٩٥) . ولكن هذه العودة كانت أيضاً مشؤومة إذ أن يوسف ، الباشا الجديد ، قد استغل فرصة الحرب القائمة بين فرنسا وإنجلترا وأعاد حرب القرصنة ، ونزل ثقلها على نابولى وصقلية وسردينيا ، ولكن يوسف حافظ على علاقات ممتازة مع فرنسا وعرف كيف يبتز العطايا (ولنسمها أيضاً جزية) من أسبانيا ونابولى والبندقية في مقابل منح إجازات مرور لسفن تلك الدول . ولم يوفق دائماً في اغراضه ، إذ أصاب الضرر عمارة دانمركية فجاءت سرية بحرية تابعة لهذه البلاد ولقنته درساً قاسياً وأنزلت بسفن القرصنة بالغ الأذى (١٧٩٧) ، وفي هذا ما يشير إلى أنه إذا عرفت نابولى كيف تبخيد من الوضع لكان ذلك ممكناً دون ريب ولقطعت شرايين القرصنة ، ذلك لأن أساطيلها البحرية بلغت أشدها بفضل ما أدخله عليها أكتون من تحسين .

واستناداً إلى ما جاء في الحوليات فان يوسف في ثلاث سنوات قد ابتز ٤١ ألف قرش من أسبانيا وه ٣ آلاف من نابولى و ٢٣ ألف قرش من البندقية علاوة على العتاد والأسلحة .

حافظ نابليون بونابرت في أثناء حملته على مصر على علاقات ممتازة مع طرابلس واستلم منها مواد الاعاشة لحامية مالطة ، وبالرغم من أوامر الباب العالى حصل نابليون على وعد ان لا يشترك البابا في الحرب ضد الفرنسيين (١٧٩٨/١٨٠٠) وعندما فرض عليه العنف الانجليزى طرد القنصل الفرنسى فقد أمر يوسف ربابته باحترام علم الجمهورية الفرنسية .

واستفادت جنوة من هذا الأمر بعدما أصبحت جمهورية تابعة لفرنسا . وعندما آلت البندقية إلى ممتلكات النمسا ، أصبح لهذه الدولة الحق في الالتزام بجميع الاتفاقات التى عقدتها الجمهورية مع الدول الغربية ، ولذلك جاء إلى طرابلس قنصل نمساوى بدلا من القنصل البندقي . واندفعت القرصنة تعمل مفضلة الممتلكات النمساوية في بحر الادرياتيك وجزيرة سردينيا ، ويكفى أن نذكر الهجوم على كارلوفورتى سنة ١٧٩٨ والقبض على ٦٠٠ شخص تولى نابليون بونابرت بعد ذلك الوساطة لتحريرهم .

وشعرت نابولي بعد سقوط جمهوريتها بثقل حرب القرصنة الطرابلسية ، وكلما طالعنا وثائق هذه الفترة أكثر ازدادت قناعتنا بأن يوسف عرف باقتدار كيف يجلب كل دول أوروبا مبتزاً الأموال في كل مناسبة باستثناء فرنسا الصديقة بالطبع التي كانت تضاعف مجاملتها فتهدى إلى ذلك الحاكم سفينة حربية . وحتى الولايات المتحدة اضطرت إلى الركوع والدفع بعد الحملة التي قامت بها ضد طرابلس واحتلال درنة والتي انتهت بكارثة .

ونلاحظ أن بالأسطول الأمريكي المرسل إلى طرابلس بعض المدافع كان القائد الأمريكي قد استعارها من بحرية نابولي ، وتميز أحد الربانة المسمى كاتالانو وهو من مدينة مسينا ، في الهجوم من السفينة اثرييد لنسف السفينة الأمريكية الجانحة (١٨٠٤) .

وزاد العنف القرصني الطرابلسي على سردينيا وخاصة بعد حملة كارلوفورتي والطرابلسيون لا يقلون عنفاً عن قراصنة تونس واستطاع السكان أن يردوهم بكل بسالة أو يفرون أمام شواني ملك سابا وديا وقد يستحق أن نذكر من بين الحملات التي قام بها الأسطول الطرابلسي الصغير حملة ١٨١٣ على مصائد التّن في كاسالبوني ، حيث هناك تولى السكان وصائدو السمك مطاردة أسطول الشباك الصغير وابعاده قبل وصول مراكب سابا وديا التي كانت تجوب في تلك الجهة .

21

في مؤتمر فيينا الذي أنهى ملحمة نابليون كانت شكوى الدول الأوروبية عالية وقوية ضد قرصنة المغاربة عامة بما في ذلك القرصنة الطرابلسية وقد أبدى بقايا الفرسان من أجل العودة لامتلاك مالطة بعد تشتتهم سنة ١٧٩٨ عن استعدادهم للقيام بجولات بحرية سنوية لوضع حد لحرب القرصنة المخزية وقدم العرض بواسطة حامى الفرسان الكبير قيصر روسيا وبالطبع فإن إنجلترا قد عارضت الطلب ، وهكذا فشلت جميع الاقتراحات الرامية إلى إنشاء عمارة دولية تجرى الرقابة في البحر الأبيض المتوسط .

وكما هو معلوم فقد كلفت إنجلترا وحدها لغرض حظر حرب القرصنة على الدول المغربية وقد أعطى الأمر بالعمل لقائد الأسطول الانجليزي لورد اكسموث ، ولكن التعليمات لم تكن قوية ، ففي طرابلس اكتفى بفرض تسريح بعض المئات من الأسرى والتوقيع على اتفاق باسم ولحساب الملك فكتور ايمانويل الأول ملك سردينيا وفرديناند الأول ملك نابولي . واتفق مع ملك سردينيا على حصانة متبادلة وفتح قنصلية في طرابلس والتزمت مملكة سرينيا بدفع ٤٠٠٠ قرش عند تعيين كل قنصل جديد ، مثلما التزمت الدول الدول الأخرى ، وبدون أى استثناء ، واعترف لمملكة نابولي بنفس الحقوق وجدد معها اتفاق صيد المرجان .

وفور سفر لورد الكسموت بأسطوله وإبحار الأسرى المحررين معه خرجت من طرابلس شبابك القرصنة فألقت القبض على سفن تجارية بابوية وقوارب صيد سمك عند سواحل طوسكانة .

واحتجت حكومة فيينا بكل شدة وأرسلت فوراً إلى مياه طرابلس لطلب الترضية فرقاطة وابريق وكانت لا تزال في دور البناء بالبندقية . ورد الداي بعجرفة على القوات النمساوية (أو للتدقيق قوات البندقية) الضعيفة ، بل رفض حتى استقبال قائد الفرقاطة

باسكو اليقو البطل ، وقد اضطر هذا إلى الابتعاد خائباً (أغسطس ١٨١٦) على أن هذه الالهانة التي أصابت البحرية جعلت النمسا تلجأ إلى طرح مسألة القرصنة في مؤتمر أكويسقوانة وفي الواقع فقد استؤنف القنص واللصوصية من قبل الطرابلسيين والجزائريين على حد سواء (بالرغم من أن هؤلاء لقنوا درساً قاسياً في أغسطس ١٨١٦) وعندئذ أسندت مهمة رجل الشرطة على الشواطئ الأفريقية إلى الدولتين القويتين إنجلترا سيدة جبل طارق ومالطة، وإلى فرنسا فتقدمت أمام طرابلس تشكيلة بحرية مختلطة بقيادة كل من أمير البحر فريمانتل وأمير البحر يوريان دي لاكرافيير وهذا الأخير مؤرخ لامع للبحرية الفرنسية ، وفرض القائدان الغاء حرب القرصنة بشكل مطلق وكامل (أكتوبر ١٨١٩) .

وبهذا ينتهي تاريخ البحرية الطرابلسية التي بدأت منذ الغارات العربية الأولى واستمرت أحد عشر قرناً ، باستثناء انقطاع قصير وكانت المصدر الرئيسي للدخل بالنسبة للسكان المسلمين في الشريط الساحلي .

على أن نهاية القرصنة قد سجلت تدهور الازدهار بالمنطقة تدهوراً كاملاً وفي الوقت الذي كانت تعاني فيه حروباً داخلية متزايدة وانتفاضات قبائل الدواخل (من المفيد أن نذكر البعثة إلى برقة التي جرت في نفس السنة التي أبرم فيها لورد اكسموث الاتفاق بين سردينيا وطرابلس ، وهذا الاتفاق الذي تحدث عنه الطبيب الجندى حديثاً قيماً ورائعاً) وظلت التجارة وحدها تقدم بعض الفوائد ولنها كانت في تناقص مستمر بسبب انقطاع قوافل قران المتكرر .

وعندما اندلعت الحرب التركية اليونانية كان على طرابلس أن تسليح بعض المراكب الحربية لارسالها نجدة للأتراك ، ولكنها كانت كما كتب أمير البحر التركي عبارة عن مراكب صيد الأسماك عليها تسليح سيء وبخارة أسوأ . والتجأ الباشا إلى الدول التي كان يعاد بها لبناء وتسليح بعض السفن التي يجب أن يوفرها للسلطان تنفيذاً للاتفاق . وقدمت ليقورن وتريستا ومالطة إلى طرابلس السفن والمعدات ، إلا أن هذه قد دمرت بالكامل في معركة نافارين .

22

وها قد وصلنا إلى الحادثة الغربية في تاريخ العلاقات البحرية بين طرابلس والدول الإيطالية في القرن التاسع عشر واعنى بذلك حملة سردينيا على طرابلس سنة ١٨٢٤ .

وتنفيذاً للاتفاق المعقود مع لورد اكسموت فإن على دولة سردينيا أن تدفع تعويضاً قدره ٤ آلاف شلن عند تعيين أى قنصل جديد . وحدث أثناء غياب مؤقت للقنصل الرسمي أن طلب الباشا من القائم بالأعمال أن يدفع التعويض . ورداً على الرفض القاطع من الملك وحكومة شارل فيليكس بدأ الباشا الأعمال العدوانية ، حتى أن القائم بأعمال القنصل السيد فو السافوى اما لخوف أو لسوء تفسير وافق على التوقيع على كمبيالة لصالح الباشا بالمبلغ المطلوب وهى الكمبيالة التى رفضتها بالطبع حكومة طورينو .

وظهر العداء واضحاً عندما جرى تسليح تشكيلة بحرية تتألف من بریقتين وبوف وغولت (١) أرسلها للقرصنة في مياه سردينيا .

وردأ على هذا الخبر قررت حكومة سردينيا جمع سفنها الجاهزة والتحول للقيام باستعراض بحرى وسبق ان جاب بعضها موانئ الشرق سنة ١٨٢٢ ، بعد أن أعادت بناء أسطول لا بأس به .

وتتألف التشكيلة من السفينة « تجارة جنوة » والفرقاطة « كرسينا » وسبق لها ان أرسلت إلى تونس والغراب تريتون ، والبريق ، فيريشىدى ، بالإضافة إلى أربعة من سفن النقل وقاد هذا الأسطول المقدم البحرى سيفورى وسبق له أن عمل بالبحرية الفرنسية

(١) - بریقتين - سفينة حربية صغيرة وخفيفة ، استعملها القراصنة في جولاتهم البحرية في المصور الوسطى ، البوف : لم أعثر له على وصف - غولت : وعرفت أيضا غيلاطة ، ومن مميزات السرعة لضيق عرضها وامتداد طولها وتحتوى في العادة على ٧ مدافع من عيار ٤ بوصة وهؤلاء الاسماء كلها دخيلة . (العرب)

وتتميز بالجرأة في أكثر من معركة . وأعطيت له تعليمات بأن يحاول بجميع الطرق الوصول إلى وفاق دون تنازل وأن يستعين حتى بالوساطة الانجليزية بواسطة القنصل فقد عقد اتفاق سنة ١٨١٦ تحت رعايته . وإذا لم ينجح في اقناع الباشا عليه أن يجمع مجلس حرب يشترك فيه جميع قناصل سردينيا المكلف بنقلهم إلى موافيء الشرق ودراسة فيما إذا كان من المناسب محاصرة طرابلس أو الهجوم عليها بعنف .

وبعث سيفورى للاستكشاف البريق تربتوني وعلم أن بالميناء غوليتين تحمل كل واحد منها ٦ مدافع وبريق واحد به اثني عشر مدفعاً (سبتمبر ١٨٢٥) واتصل بعد ذلك بالقنصل الانجليزي وبواسطته بالحاج محمد أمين سر الباشا . واقتنع سيفورى بعد محادثات طويلة دامت يومين أن الاتفاق السلمي بعيد المنال فرجع إلى سفينة القيادة وأرسل الانذار الأخير ، واجتمع مجلس الحرب حسب التعليمات وتقرر محاولة تنظيم مفاجأة وقد جرى التأكد أن القصف بمدفعية السفن لن يعود بأية فائدة بسبب التحصينات وبطاريات السواحل واستحالة اقتراب السفن من المدى الصالح للضرب .

وفي هذا الوقت قرر سيفورى ركوب البحارة أثناء الليل في قوارب الانزال الخاصة بالفرقاطة كريستينا وتربتوني ونيريشيدي وقوارب أخرى صغيرة وكان مجموعها عشرة ، مجهزة بالمجاديف ، وتولى الملازم أول بحرى ماميلي قيادة سرية الانزال ، وفي كل قارب ضابط مرؤوس (ملازم أول ، حارس بحرى ، ضابط بالسلاح البحرى) وتشكلت بذلك ثلاث مجموعات واحدة منها ظلت تحت قيادة ماميلي وكلفت بمهاجمة بريق طرابلس كان راسياً بالميناء ، وكان على المجموعة الثانية أن تهاجم الغولت بقيادة بميليا من الفرقاطة كريستينا ، أما الثالثة فكانت بقيادة الملازم ثان كيجي ومهمتها هو منع الاتصال بين السفن والأرض ولماذا ما وجدت الفرصة فعلها أن تختل دار الصناعة وقطر البريق نيريشيدي هذه القوارب حتى تدخل الميناء ومنه تقدمت دونجلبه أو ضوضاء ليلة ٢٦ سبتمبر وعلى ظهرها ٢٦٠ بحاراً . واقرب رجال ماميلي في كامل السكون إلى البريق واندفعوا على ظهره مهاجمين على حين غرة رجال الحراسة فقتلوهم واستولوا على السفينة قسراً ثم أحرقت بعد أن رأى أنه من المستحيل جرّها .

وتحت نار مدفعية الميدان هاجم بيلينا الغولت وفي الوقت نفسه هاجم كيجي بجرأة عظيمة الحامية ونزل برجاله إلى البر ومنع من نجدة السفن . وقبل الفجر عادت

القواذب العشرة إلى متن السفن، وكانت الحسارة هي ميت واحد وآخر مجروح جرحاً مميتاً وبعض الجرحى مجروح خفيفة . والخلاصة أن الحملة لم تنجح نجاحاً كاملاً إذ لم يتم احتلال دار الصناعة ، على أن فيروا لم يكن عادلاً أبداً عندما قال على ذمة القنصل الفرنسي أن حملة سردينيا هذه كان عليها أن تنسحب فقد خسرت كثيراً من رجالها ان مثل هذا القول لا يصدر إلا من أصدقائنا في فرنسا .

لقد منعت غيرة القنصل الفرنسي من زميله الانجليزي صديق سردينيا من أن يرى ويقتدر . أما الباشا وقد خاف من هذه التجربة الهائلة لجرأة بحارة سردينيا وخوفاً من تجديد الهجوم فقد أسرع إلى قبول التفاهم ، وقد سبق لسيفوري أن اعلم قناصل الدول الأجنبية أنه سيقصف المدينة من البحر في اليوم التالي .

وهكذا تخلى الباشا عن كامل مطالبه وحي علم سردينيا بست طلقات مدفع كما هو مقرر ووافق على استقبال قنصلها وأمر بتقديم تحية السلاح لسيفوري عند نزوله إلى الأرض مع كامل رجال أركان حربه .

وبهذا فقد نالت بحرية سردينيا نصراً مميزاً إذا ما قدرنا قلة الوسائل والوضع الذي كانت عليه الدول الإيطالية . واستغلت مملكة نابولي انتصار سيفوري لمنع الباشا من المطالبة بهدية جديدة بمناسبة موت الملك فرديناند الأول وتولى ابنه فرانشيسكو العرش من بعده .

لكن طرابلس لا تستطيع التخلي عن حرب القرصنة ، ففي سنة ١٨٢٦ جرى الاستيلاء على ثلاث من السفن البابوية ، واستدعت لذلك تشكيلة بحرية فرنسية مهددة ، وفرضت على يوسف باشا ترجيع الغنائم وتحرير الأسرى والوعد بأن سفنه ستحترم من الآن فصاعداً العلم البابوي، وهكذا بدأ الملك شارل العاشر بمد الحماية على البابوية وتبعه في ذلك ورثته إلى نابليون الثالث والرئيس ثبير .

ويمكن أن يقال أن معركة نافارينو التي اشترك فيها الطرابلسيون وأصيبوا فيها بخسائر شديدة هي آخر وجه للبحرية الطرابلسية ، فلم تبعد ذلك سفن جديدة لتعويض ما ضاع ولم يهبأ رجال آخرون للعمل في البحر ، وقد كبحت تشكيلات من من السفن الفرنسية والانجليزية التي يثت في مياه المغرب بعد الانتصار التعصب الاسلامي الذي أوقده الباب العالي .

واعتقد يوسف أنه ما يزال قادراً على التسلط على بعض الدول الإيطالية ، وأصر على أن يطلب هدية فوق العادة من فرانشيسكو ملك نابولي إذ كان يعتقد أن اتفاق سنة ١٨١٦ الذي فرضه لورد اكسموث يجب أن يعتبر منتهياً . وعندما تبين ان المفاوضات لاتفاق سلمى قد باءت بالفشل ، ولا يستغرب ان القنصل الفرنسي ساعد على اذكاء نار الخلاف ، هناك أرسل الملك فرانشيسكو الأول تشكيلة من خمس سفن ، (ثلاث فرقاطات وبريق وغوليت واحدة بالاضافة إلى ٤ سفن مزودة بمدافع خنادق و ٨ سفن أخرى مدفعية ووضعت هذه القوة تحت قيادة المقدم سوزى - كارافا . وصلت هذه العمارة إلى طرابلس يوم ٢٢ أغسطس ١٨٢٨ وبعد فشل المفاوضات السلمية بدأ سوزى القصف المدفعى في اليوم التالى بالمدافع من السفن المخصصة لذلك . بيد أنه اما لسبب الوضع الملاحي السيئ لتلك السفن المتآكلة أو بسبب البارود الفاسد أو لسبب حالة البحر لم يكن للقصف أى أثر . وأضطرت السفن للانسحاب . وبعد أيام قليلة أطلق سوزى النار من سفن صغيرة : ايزابيلا والأمير شارل ، وفي هذه المرة كذلك فان نوعية البارود التى تتجهز بها بحرية نابولي من متعهدين لازمة لهم جعل فعالية القصف لاشيء (٢٦-٢٧ أغسطس) . وفي آخر قصف بحرى (٢٨ أغسطس) استطاع العدو أن يسكت سفن المدافع ولذا فان سوزى كارافا انسحب تاركاً الميدان واسعاً أمام الطرابلسيين الذين شرعوا فوراً في حرب قرصنة ضد نابولي ، لقد كانت خسارة الطرابلسيين ١٠ قتلى وعدداً كبيراً من الجرحى هذا ما قاله أحد رعايا نابولي كان يقيم بطرابلس أما صاحب الحوليات الطرابلسية فإنه قال : لم يمت شخص واحد وان الفضل في حمل الباشا على السلام يعود إلى القنصل روسو !!

وتم الاتفاق على السلام بواسطة السفير الفرنسى بنابولي دوق بلاكاس وهو سلام لا يشرف الملك كثيراً ، فقد فرض عليه أن يدفع ٤٠ ألف قرش ، وأعقب هذه الحملة المشتومة محاكمة سوزى بسبب التهاون ، ولكن الملك ألغى الحكم .

23

ان نهاية القرصنة بفضل تهديد الدول البحرية المستمر ساهمت بنصيب وافر في سقوط الحكم القره مانلى : فالسكان وقد حرّموا من الوسائل المعتادة للبقاء وضيق إيرادات الخزينة وامتناع الاداء من الدول البحرية ، كل هذه العوامل خلقت حالة نفسية أيقظت روح الثورة الكافية . لقد اندلعت تلك الثورة سنة ١٨٣١ واستمرت لبعض السنين وحتى بعد تنازل يوسف لصالح ابنه على ، عندما استدعى الباب العالى للواجب فاغتنم الفرصة السانحة للتخلص من القره مانليين واخضاع طرابلس وبرقة لسيطرته المباشرة (١٨٣٥)

وفي هذا التدخل التركي تتضح يد الانجليز وكان يهمهم منع فرنسا من الحصول على فرصة للتدخل كما فعلت قبل سنوات قليلة في الجزائر . وهناك أدلة كثيرة تثبت أن فرنسا كانت تضع عينها على تونس وطرابلس كما توجد أدلة أخرى تثبت أن تركيا كانت تفكر في ضم تونس بالاضافة إلى طرابلس ، وقد منعتها المراقبة المحكمة التى كانت تقوم بها فرنسا بقواتها البحرية .

وهكذا بعد أن فقدت تركيا الجزائر نهائياً وظلت سيادتها على كل من تونس ومصر سيادة اسمية تعود مرة أخرى لتضع رجلا في هذه البلاد الواقعة بين المنطقتين وبذلك يختلط تاريخ طرابلس منذ ذلك الوقت وحتى مجيئنا ١٨٣٥ - ١٩١١ بتاريخ الامبراطورية التركية .

وعادت العلاقات بين طرابلس والدول الايطالية منذ ذلك التاريخ وإلى ما بعد إلى علاقات تجارية فقط اغلبها من عتصرين اثنين هما رعايا ملك سردينيا (أو الجنويين) ورعايا دوق طوسكانة (أو الليقورنيين) ويتميز العنصران بنشاط كبير في جميع موانئ الشرق على أن الهرج والمرج المستمر في المناطق الداخلية قد جعل الحركة في الموانئ الطرابلسية في تناقص دائم .

لا يدخل في نطاق هذه الدراسة الاهتمام بالسياسة التي اتبعتها مختلف الدول الإيطالية ولا السياسة التي سارت عليها من بعد مملكة إيطاليا بعد سنة ١٨٦١ تجاه طرابلس ولا سياسة التغلغل السلمي الموضوعة عندما فرض توسع السيادة الفرنسية في البحر المتوسط الأفريقي على إيطاليا أن تذكر تحويض الطبيب الجنوى دلا تشيلا إلى ملك سردينيا ، وتذكر فقط أن أهم خط للمواصلات البحرية بين طرابلس وأوربا الغربية كان ذلك الخط الذي أسسته شركة روباتينو الجنوية ودمجت فيما بعد مع شركات أخرى وصارت تعرف باسم شركة الملاحة الإيطالية (١٩٠٠)

١١ أما ما يخص الحالية الإيطالية المستقرة بطرابلس وعلى رأسها قنصل إيطالي بدأ عمله منذ سنة ١٨٦٠ فإن الوثائق تكتب الأخبار المفرضة التي أوردها فيرو والذي ادعى أن الحالية تتألف من عدد قليل من الجنويين والليقورتين والنابوليطان يعيشون حالة يؤس وهم من الأرقاء السابقين تحرروا واستقروا في طرابلس عمالا باستثناء بعض يهود ليقورن الاغنياء . ١٢

حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر
مركز دار الأمانة العامة للدراسات والبحوث

ص. ٥٠٠ : ٥٠٧٠ طرابلس

الجمهورية العربية اللبنانية الشعبية الاشتراكية العظمى
رقم الإيداع: ٥١٤/٨٨/دار الكتب

مطابع الورق والطباعة
الثورة العربية / طرابلس

الاحداث الايطالية فى البحرية الطرابلسية

CAMILLO MANFRONI

**L'ITALIA
NELLE VICENDE MARINARE
DELLA TRIPOLITANIA**

**A. AIROLDI EDITORE VERBANIA
MCMXLII - XX**